هُدى جَاد

سكر نبات

مجموعة قصص

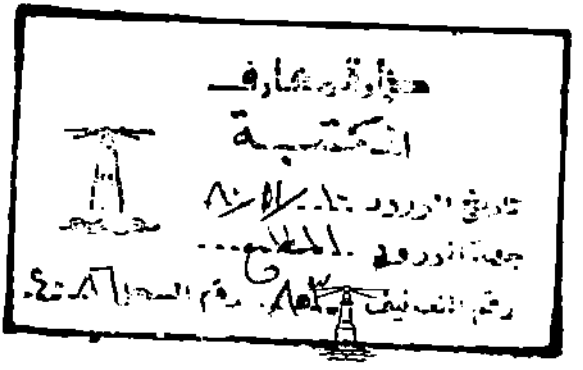

دار المعارف

بقع الدم . . الوردية

رماها بنظرة . . تلعثمت أهدابها ، رماها بأخرى . . دق قلبها ، حدد إليها البصر . . تلمظت أمعاؤها ، لمحت ابتسامته . . أحست بلدغة ثعبان . . استمعت إلى ضجيج القطار . منذ كم عاما يتبادلان النظر ؟ ومتى كانت أول نظرة تبادلاها معاً ، أوكل على حدة ؟

يقولون عندما يشاهدون الصور التى مضت عليها عشرات السنين : الأيام تمضى سريعاً . . سريعاً . . سريعاً . بودها أن تغمض عينيها ، لتجد نفسها على محطة القطار . . حيث تستقبل مدينة جديدة تسترّوح فيها نسمات البحر ، فتستنشق هواء قد يقدر أوكسجينه على طرد كربونه المتعفن . . آه لو اطلعنا على الغيب آه لو امتد بصرنا على المدى الطويل ، وشاهدنا واستمعنا ولمسنا بدلا من القول المأثور أمامك سكة سفر القول الحقيقى برغم مرارته . .

أمامك سكة العذاب والظلام والقهر ، لكنا قطعاً اخترنا الواقع . . وما الواقع ؟ إنه التربص ثم الانتظار الطويل من أجل . . نعم من أجل لا شيء أقهوة تريدين أم شاياً ؟

– لا شيء . . لا شيء !

يتصفح جريدته . . الملامح غارت فى الوجه المكدود ، الجلد اقتربت طياته بعضها من بعض ربما يلوذ من المجهول ، لكنه عندما تقارب بعضه من بعض لم يحسن الإحكام . . فتكونت موجات غير غاضبة وأخذت تلتحم وتلتحم . . حتى استكانت قرب كل أذن . .

هذه بقايا ملامح . . كانت من زمن بعيد تمثل وجه رجل فى الثلاثين ، محملق العينين بنظرة جامدة ، قد تلين أحياناً أو قليلاً . . لكن الدافع عادة يكون فى لحظات قنص أو اغتصاب . .

يقولون عندما يشاهدون الصور التى مضت عليها عشرات السنين . الأيام تمضى سريعاً . . سريعاً تذكر في مرة من هذه السنوات العجاف الماضية . . حواراً دار بينها وبين زميلة .

– لو أحببت يا عفاف لأحسست بمعنى الغيرة ، لكنك الوحيدة بيننا التى تختزن عواطفها . . وقولك المأثور . لم أجد بعد من هو جدير بحبى . . آه لو أحببت . . !

– ليست غيرة ياصديقتى ، لكنه احتجاج على موقف غير شريف ، وليس معنى ذلك أننى أحب . . بمعنى أن أشاهد موقفاً مشيناً فى الطريق مثلا . . فينتابنى الغضب ، قد يكون مكتوماً أو غير محجوز ، لكنه يجتاحنى أولا ، وقد

اتخذ موقفاً إيجابياً أو لا أتخذ ، لكنى قطعاً لا أرضى . . وقد يكون هذا كافياً أو غير كاف . تماما فى نبأ كهذا الرجل الذى يقبع أمامى يرمينى بنظرة من حين لآخر فمازلت أحتفظ بنضارتى ، وليس معنى نظرته أنه ما زال معجباً بى . . لكنها بذرة الحقد . . فلم غيرته الأيام ولم تغيرنى ؟ لم طحنه الحقد ولم يتلبسنى . . برغم أننى الطرف الخاسر . هل أستكين ؟ لا هل أنتظر موتى بيد غيرى ؟ قطعاً لا . . فإن كان لا بد من الموت ، فليكن من اختيارى وعن اقتناعى .

بودى لو تقرأ أفكارى . . بدلا من متابعتك أسطراً فى صحيفة تقرؤها من عشرات السنين . .

بودى أن تلم بخيوط متابعتى لأفكارك أنت المتبلدة التى تتركز فى حواسك ، فأنت تجيد التهام الطعام ، وفى أثناء مضغك ترمق من ينحسه الطالع ويجلس قبالتك ، لترمق لقماته ، وهو يتناولها من أجل البقاء فقط ، يحس من يشاهدك ، وأنت بنظراتك تكاد تسحقه أن لقمات الطعام تنفذ إليها سهام سمومك ! وقبل أن يهضم طعامك يموت صريعاً . . وتتهم أنت باغتياله النفسى . . تماماً كقاتل يحمل سلاحه تحت إبطه ، ويغمره فى قلب ضحيته ، قد تظهر بقع الدماء . . وتتثال بقعة بقعة ، ولكن ما هذا ؟ ما هذا ؟ أفى حلم أنا أم فى يقظة ؟ هل تلاحمت أفكارى وصنعت قاتلا وقتيلا وبقع دماء . . ! لأمد يدى أتلمس الحقيقة . . لم يعد هناك مفر من أن أصرخ أو بأضعف الإيمان . . أنادى القابع أمامى . . زوجى الأبدى .

– أتشاهد هذه البقع من الدماء ؟

– دماء ؟ أى دماء ؟

تحركى يا جثة . . دعى الصحيفة جانباً وانهضى لإنقاذ روح ما زالت تصارع . . تحرك الجسد القابع ، وخرج رأسه من النافذة ، ليلمح دماء تسيل من فوق سطح القطار . .

كثر الهمس . . تجمعت الرءوس والأجساد ، وكون الحشد قوة رهيبة ، كان لابد من إبلاغ ناظر المحطة الذى أبلغ بدوره عن حادثة قتل تمت فوق سطح القطار ، فقد انتهز رجل ، فرصة خلو السطح من الناس وطعن غريمه الذى استدرجه معه بحجة السفر مجاناً .

أخطرت النيابة التى تولت التحقيق ، وتم القبض على الجانى . .

همست الزوجة التى اكتشفت حقيقة الأمور ، منذ سنوات مضت :

– كم تبقى لنا من ساعات ، لنصل إلى الإسكندرية ؟

أتاها صوته النحيل الذى أثار فى نفسها كوامن البغض والملل :

– لم أعد أعرف شيئاً . . هزتنى الحادثة . .

أما أنا فقد عرفت الكثير . . برغم صمتى وتلعثم أهدابى ، ودقات قلبى السريعة التى تسابق دقات القطار ، وبرغم تلمظ أمعائى عندما شاهدت بقع الدّم . .

لم يبق من ساعات السفر إلا دقائق ، لأصل إلى بر الأمان . .

حيث لن ترانى بعد اليوم . . برغم مضى السنوات العجاف التى اعتصرت عودى . . برغم موتى البطىء الذى لم أشهد دماءه إلا منذ لحظات .

القلب المثقوب

- كيف تغيب عن زيارتنا هذه المدة الطويلة ؟

ألقى السيد مأمون بهذه الكلمات لجاره السيد كمال . .

وتأملت السيدة (ع) زوجها (مأمون) بتعجب وانبهار . . ليته يعاملها هكذا مرة فى السنة وستكون من الممتنات الراضيات . .

عيناه محملقتان فيها دائماً ، إذا ما قامت من نومها . . إذا ما التقيا فى ممر من شقتهما . . إذا أطبقت الأجفان الأربعة أطلت من محاجرها عيناه . . تتفحصانها .

ورنت إلى جارهما السيد كمال ، عضو مجلس الإدارة بالشركة (الفلانية) كنت أتمنى أن يرزقنى الله بأخ له بعض خصالك . . ليبقك الله لزوجك الغائبة ، نعم الشريك الصديق . عيناه تنفذان إلى قلبها ، ويُرشَق سهمٌ من حديد نصله

حاد مغموس بمياه حارقة ، وترتفع دقات قلبها الجريح المتألم ، وتغوص أضلعها وتحس بثقل فى صدرها ، وإن ظهرها يكاد يطابق قفصها الصدرى ، فتتحول إلى كائن عديم الغلظ ، كتمثال على قاعدة ، إذا ما حركه شىء ما فى كل الاتجاهات بسرعة معينة – تحول إلى مرتفع رأسى لا معالم له ، إلا فراغاً من هواء يلفح كل من يراه بنسمة حارة ، دائماً تمس ببعدها . . ضياعها . . متاهات ساعاتها . . أمها تعيش مع زوج احتل مكان أبيها . . آه من الموت المبكر ! لو عرف أصحابه ميعاده لغيروا من تخطيط ، خريطة حياتهم كانت هى من بين المواليد (وحيدة) لأم ، دون اسمها فى شهادة الميلاد ، ولأب لا تعرف عنه غير اسمه وسيرته . . تحملت الكثير حتى حصلت على شهادة تقيها شر العوز . والزوج فقير أو يكاد يحصل على لقمة يبتلعها فى جوفه ولا يترك لها إلا الغلاف ! . . عيناه تترصدانها . . إلى أين تصوب نظراتها . . محاصرة . (وحيدة) . . حيرى . . كيف لا يمل من تصويب نظراته . . لا كلل أو تعب . . رغماً عن أنه يخاطب ضيفه الجار العزيز ، لا ينسى كلمة مجاملة مشاركة منه فى كل ما يحيط بالسيد كمال الجار الأثير . . أخيراً اختارت عينا زوجها فترة راحة ، لينطق لسانه بصوت آمر برغم جفوته . . كيف نسيت فنجان قهوة السيد كمال؟ . . من طول العشرة أصبح فنجانه عادة ، بالنسبة لنا جميعاً . . أليس كذلك يا سيد كمال ؟

وانفرجت شفتاها ، ربما ليخرج صوتها مرتعشاً – كعادته – خافتاً لدرء منخفضات هوائية باردة ، قد تأتيها من حيث لا تحتسب ، فالسيد مأمون صاحب النظرات الحادة المتشنجة شخصية غير قريبة . . لا ، ليس بالنسبة

للآخرين . بل لديها بالذات . إنها على النار . . كيف تقول ذلك ، أتكذب بعد سنوات عمرها تلك ؟ . . نعم على النار . . هى . . وليست القهوة ! دائماً ينتابها شعور بالذنب ، وأن هناك عقاباً يترصدها . . والبركة فى السيد مأمون ، كان رأيه فى فكرة اشتغالها . . عمل العانس أو المطلقة أو الأرملة ضرورة وأنا ، ويشير إلى صدره العريض الذى لا ينبت إلا أخشن الزرع . . ويسأل ويجيب فى الوقت نفسه ، ربما ليغنيها عن إرهاق الكلام ! .

مرتبى محدود . . أعرف . . وصاحب شهادة متوسطة لا أنكر لكنى أولاً وأخيراً . . الرجل . . وتكمل هى – فى سرها – الحاكم والخصم ، فأخى فى بلد عربى . . هل جرب بعضهم أن ينتزع من شجرة أوراقها ذابلة حتى فى فصول الصيف ؟ ها . . ها هى ذى النظرات ترشق سهامها المسمومة . . على رسلك يا شريكى ، فالقهوة ذات الطبقة الكثيفة من البن المعطر النفاذ مصبوبة فى الفنجان . . تماماً كما يريد الضيف ، أو لعلها رغبة المضيف . . والذى يربط بينها وبين زوجها . . آه ! . . ورقة . . مسجلة فى أكثر من مكان ، وما الذى تضمره له ؟ لقنها شىء من باطنها . . أرجئ الارتباط به بالحمل والولادة . . وهو ؟ الغريب أنه لم يحادثها فى هذا الموضوع . . إطلاقا ! . . لو ساد الحب والسلام بين الشعوب ما كان هناك استعمار واستبداد . . ورنت إلى النافذة نصف المغلقة ، وصوت المذياع يؤكد أن هناك اتفاقات ، بين الدول العظمى على ألا تستعمل قنابل النابالم فى الحروب ، والنتيجة إصابات وتشويهات لجماعات يعانون فى المستشفيات . . وآلام . . آلام . . وأتاها أمر مزدوج . . من عينيه المتجمدتين ، وصوته . .

قال – نسيت الشيء الهام . . كوب ماء مثلج . . كأنك مراهقة . . و . . وغض الضيف من طرفه وخرج صوته حييًّا – لا أريد أن أكون السبب فى أى إزعاج و . . لست عطشان . .

أهذا صوتها ؟ هى نفسها لا تدرى – لا عليك يا سيد كمال . . الكلمات الجارحة مهمة جدًّا . . كالماء والهواء . . ربما يرفضها إحساسى ، لكن أذنى تعودتا صداها .

واتسعت دائرتا عينى مأمون ، وأطل سوادهما فغطاهما . . حجبهما . . بخيمة حالكة لا مسام لها ، وأحست بالاختناق ، وبأن صدرها يعلو ويهبط ، ورنا إلى ضيفه وقال بصوت لا حياة فيه :

– البيت بيتك ؛ وخاصة فى غياب السيدة زوجتك فى الخارج . . ارفع الكلفة . . ارفع الكلفة ، أخوك أنا الأكبر .

ثم عقب دون أن يلتفت إليها – هى أيضاً . . بمثابة الأخت . .

أهذا صوتها ؟ هى نفسها لا تدرى – لعلنا سنعيد عهد الفراعنة !

آخر مرة تبادلا حديثاً مبتوراً ، ولم يكن معهما أحد إلا . . الجدران . . لا تذكرها . . لا تذكر هذه المرة على الإطلاق . . أيمكن أن تنغمس روح فى أرواح آخرين ، تتكشفها تتسمعها . . لتنصت إلى دقات قلوب . . قلوب غير مثقوبة . . قلوب سوية ذوات عضلات قوية . . تمنح . . تمنح . . لا يبادلها إلا كلمات قلائل . . قد يكون غاضباً . . قد يكون فرحاً ، لكن قسماته لا تنبئ عن شيء . . وإنما أبداً يريد زواراً ، قد يدهش من يستمع إليها بصدق ، لو عرف أن معظم الزائرين من الرجال ، ولو كانت هناك نسوة فهن

مصاحبات . . ودائما يجاملهن ويلح فى استبقائهن ويرنو إليهن بعينى سمكة أو كأنها أعين زجاجية . . تترصدانها . . تحصيان عليها خطواتها ، وفى النهاية دائما هى مخطئة ناسية متناسية . . امتحان أبدى والنتيجة صفر من اليسار !

الشغالة الصغيرة ترمقها من بعيد بحنو غريب ، لا تملك إلا إلقاء النظرات الحانية المتجاوبة . سهرت ليلة بطولها . . زوجها يتحدث وهو نائم . . لقد بدأت فى التعود على الإنصات الليلى . . أما سيره وهو نائم فكان التجربة الأولى . لم تقم بأية حركة . . لقد قرأت كثيراً . . علم النفس هوايتها . شاورت نفسها . . هل أحادثه ؟ كانت مغامرة . . كان تعليقه على كلماتها ما الذى يضرك ؟

– كل ما أريد معرفته : هل كنت تعرف ذلك من قبل ؟

ليتها ما تكلمت ، منذ البدء رنا إليها بوحشية . . خرجت كلماته . . كانت (الوحيدة) التى اكتشفت ذلك ، لم تكن فى كامل حريتها ، كان الآخر يشغل كل وقتها . . أتعرفين من هى ؟ إنها أمى . . أمى . . أمى ها . . ها . . ها . .

رنت إليه . . لماذا تزوجت هذا الرجل الخشبى ، تكاد تجزم بأن مكان قلبه حجرة ، كانت تعرف أن علاج سير النائم ، وضع طبق مملوء بالماء ، موضوع أمام السرير عند مكان خفية . . واحدة من أساليب العلاج ، قد تفلح والنتيجة غير مؤكدة . الشىء الطريف أنه يسألها بصيغة اتهام أو لعله عتاب من نوع جديد . . كيف تهملين جارنا السيد (كمال) ؟ . أنسيت أن زوجه غائبة فى الخارج ؟ يحتاج يقيناً إلى رعاية منا ، إنه بمثابة الأخ لكلينا . .

أهذا صوتها ؟ إنها لا تدرى . . كيف أدعوه فى غيابك ، وإن كانت الدعوة فى أثناء وجودك أفلست أحق منى فى أن تدعوه بنفسك ؟ .

وانتشرت خيمة خيوطها عنكبوتية ، ورنا مأمون إلى هذه الشرنقة العملاقة التى احتوت جدرانها أمه التى أرضعته . . وعمه شقيق أبيه ، وتخيل الشرنقة العملاقة تضيق وتضيق وتنطبق جدرانها الهشة ، وينخفض سقفها وتضغط عليهما معاً وتحولها إلى تمثال واحد بوجهين ، أحدهما ناعم والآخر خشن !

وصرخ من أعماقه . . الخائنة . . بل هما معاً خائنتان !

ليتغمدك الله برحمته يا أبى . . وغطى عينيه بكلتا يديه . وفى ثوان لا تدرى خرج صوتها – هل آتيك بشىء ؟

هل يمكن أن تتوالى تصرفات مجنون على هذا النحو ؟ أن يتفوه بكلمات . . لا رابط بينها وتسمع هذه الجملة .

– نعم أريد أن يزورنا كمال . . أنت وهو تكونان معاً طاقة جميلة ، عطرها فساد وهيثها أفعى وأفعوان . . حالاً . . إطرق بابه . . لماذا لا تردين ؟ هه ! تدعين العفة أليس كذلك ؟ لعلك تفوقينها خيانة وغدراً . . منذ دقائق ادعيت أننى أسير نائماً ! ولم لا ؟ لكن كيف أنام ولم يغمض لى جفن منذ رأيتهما معاً ما الذى اكتسباه ؟ معاً فى التراب تتعانق عظامهما ، لكن الآخر الحقيق الرجل المتكامل . . أبى يبتسم ويبصق عليهما من عليائه . .

لماذا لا تتحركين ؟ أريد «كمال» حالاً . . هل أمسك بعصا غليظة . .

هل حاول إخافتها بتهويشه ، من حركاته المتشنجة ، وما الذى دعا الشغالة التعسة لتتطوع بهذه الكلمات .

– اهدأ يا سيدى . . سأناديه . . سيدتى متعبة .

كيف تحولت العصا إلى الشغالة ؟ ولماذا أسرعت الخطى ، والكلمات تنهال

عليها ؟ أصر على أن تطرق بابه بنفسك يا زوجتى العزيزة أم لعلك تفضلين هذا التصرف فى غيابى . . أجيبى . . لماذا تلتزمين الصمت ؟ لقد كانت تفوقك ، فلم يكن جارهما بل كان العم . . البيت بيته وزوجة أخيه كأنها أخته ، أما أنت فسذاجتك غير محكمة ، وتصنعك الهدوء غير مجد ، أمامك دقيقة واحدة ، وإلا فسأفصل رأسك عن جسدك ! .

الشجرة . . مقتلع جذورها . . الأم موجودة غائبة . . والأخ فى بلد عربى وأبى . . أين أنت ؟ اسم فى أكثر من ورقة مكتوبة . . هذا هو انتمائى إليك ، والمجنون أمامى صاحب الأفضال لإيوائه ، امرأة تؤانسه وتجتر تصرفاته فالجمل الدءوب ، سفينة الصحراء ، أنا . . لا . . لن يكون هذا أبداً . . سيرتفع رأسى يطاول السحاب ، لأكن من شجرة مقتلعة . . هناك أشجار أخرى غرست ، أو ستغرس . . لم لا أكون منها . . سأبقى برغم أنفك . . سأبقى بلا مساوٍ أو شرور ، سأبقى صامدة لأخطو الخطوة الإيجابية الأولى وستليها خطوات وو . . أصوته هذا ؟ حسن . . هل سيفوتنى أن أقرع بابه . . سأتخطاكما معاً . . أنت وشغالتك أو قوادتك ! لعلها ساعة يحلو لك فيها الهرب . . هيهات . الحبل بين يديه وأطرافى تقاوم ، والشغالة تقف بيننا ، وفجأة تنزاح من الطريق إثر صفعة تتلقاها ، وهناك فى حجرة نائية ، يغلق عليها باب بالمفتاح .

أهذا صوتها . . إنها نفسها لا تدرى . . أحيوان أنا لتمنعنى عن الحركة ؟ قدراتى أكبر من هذا أنا المتفوقة فى النهاية ، عيناها تبتسمان . . صدرها يعلو ويهبط نشوة ، إنها بداية النهاية ، وهل فجرت الثورات إلا بعد كبت الآلام ؟

لقد فتح باب الشقة والمجنون يخبط على باب جاره . . لكن لا أحد يجيب ،

أبالداخل هو أم بالخارج ؟ من يدرى . . وحالا كان أمامها . . عينان اختلط فيها أكثر من لون بياض بسواد باحمرار ، كالنار تندلع من أرض حالكة ، إلى سماء لا تنبئ إلا عن صواعق ، المجنون يمسك ورقة بين يديه . . ما هذه الكلمات . .

أهذا صوتها . . إنها نفسها لا تدرى . . أتريدنى أن أوقع على خيانتى مع جار عددناه معاً أخاً لنا ؟ وأجاب نصل السكين الحاد فى يده . . حسن لتوقع تحت هذا التهديد ، لكنها تعمل حساباً للنهاية . . تخطط وهى مكتوفة ، وتفكر بأعضاء متخشبة برغم عطرها الذى سيفوح بعد اندلاع النار ، تماماً كخشب الصندل لا ينشر عطره النفاذ إلا بعد اشتعاله ، وفجأة اختفى بخطوات ملتاثة خرج من الشقة ، واتصل بالنيابة . أحاطت به أشجار الطريق على الجانبين ، وسمع قهقهات الجن والمردة ، وأشارت أصابع اندفعت من غصون الأشجار مشيرة عليه . . قواد أمه . . قواد أمه . وأخيرا . زوجته . . هؤلاء النساء الخائنات الملتفات فى ملاءاتهن البيضاء يخفين من تحتها أجساماً ملوثة دنيئة . لماذا يرنو إليها الناس . . قالت : إنه يتكلم ويسير نائماً لكنه صحا . . هو فى تمام يقظته . . الآن . . نعم . . الآن . .

أمام حضرة الضابط . . خائنة كتبت صك جريمتها والشغالة تشهد برغم تواطئها . لكنى لم ألحق السابقة ، الدينامو الأول الذى يغذى المنطقة كلها (أم مأمون) رحمها الله . . بل رحم أمهاتكم جميعا . . ها . . ها . .

يا حضرة الضابط : لماذا تخشى هذه الورقة ، اقرأها لتتشجع ، وأصبح

مثلك الأعلى . . أمك وأختك وابنتك وزوجك ، أيضاً . . كلهن خائنات . .

وخرج الزبد من شدقيه ، وفى أقل من ساعة كانت الشرطة والجيران قد أطلقوا سراح الزوجة السجين مع شغالتها . .

وتحدد مستقبل اثنين . . مولد امرأة . . ونهاية مجنون ! !

الأوزة السوداء

كلهم معا . . الأب . . الأم . . والإخوة . . وهى « آمال » العروس الخمرية فائقة الجمال مع خطيبها « هشام » . . اختاروا حديقة الحيوان ، وكان اليوم هادئًا ولم يكن ذلك صدفة ، بل كان مخططا له من قبل ، اختاروا مائدتين فى جزيرة الشاى وتعمدت الأم الذكية أن تنفرد ابنتها بالجلوس مع خطيبها أمام مائدة منفصلة على مدى رؤيتها لتضرب عصفورين بحجر ! . .

ورنت « آمال » إلى بحيرة البط . . وشاهدت إوزة فاحمة السواد ذات ريش براق كأنه ليل بهيم يتلقى وداع شمس غاربة احتواها الحياء ونشر أرجوانيته على منقارها . وبحركة لا شعورية امتدت أناملها وقطعت جزءاً من شطيرة لتحيله إلى فتات تلقفتها صفحة المياه الوادعة ، وتحركت الإوزة العملاقة واستدارت وتناولت بمنقارها قطع الخبز المبللة بالمياه ، وغاصت « آمال » فى لجة أفكارها

التى كانت تقطعها كلمات « هشام » . . متى يضمنا عشنا يا آمال ؟ أتذكرين ؟ لقد اخترنا فترة الشتاء ، . . الدفء يلم شمل العشاق . . ونار المدفأة والاندماج الكامل بيننا ، . . أين أنت يا حبيبة الروح . . أين ؟ وكانت « آمال » قد سرحت بأفكارها بعيداً ، فلم يستوعب ذهنها من كلماته إلا كلمة « أين » ؟ نعم . . أين هى . . على مقعد تجلس ما فى ذلك ريب . . تواجه سحنات لم تغب عن رؤيتها إلا لماماً . . سحنة واحدة فقط هى التى تشدها . . شخصية واحدة بعينها هى كل دنياها . . ليبقها الله . . ليبقها الله . . إن أصابعها تلمس شيئاً . . فيه دفء وحنان . . والتفتت إليه . . « هشام » يمسك يدها . . حبيبها . نصفها الحامى . هذا هو المفروض ، ولكن . وداعبتها عينا « طارق » أخيها اليافع الطالب بالسنة الأولى بكلية التجارة . . صديقها وأليف وحدتها . . أتراكم تحسون بما يعتمل فى نفسى ؟ يدى فى يده هذه حقيقة ملموسة . . الحقيقة الأخرى الثابتة — على الأقل فى ذهنى ونفسى — أنه مثلى الأعلى .

الرجل المكتمل صاحب السترة الأرجوانية والسروال الأسود . . تماما كهذه الإوزة الشامخة حتى فى طريقة تناولها لطعام أتاها من عند آخرين . . أفلا بد يا « هشام » أن تمسك بيدى هذه الفترة الطويلة . . أحقيقة أنها فترة طويلة ؟ يخيل إلى أنك تمسك بيدى منذ أربع سنوات ، أو لعل الوقت كان أطول من ذلك . . ربما منذ مولدى . . منذ أن أعلن فى شهادة الميلاد ، بنت ، أنثى . اسمها آمال . هل لى حق الاختيار ؟ نعم بطبيعة الحال ، وأسرتى تتسم باعتناق مبدأ احترام حرية الفرد . برغم تصرفات أمى التى تثيرنى أحياناً . . أحياناً ؟ لا . . بل دائماً !

الآن مثلاً فى هذه اللحظة و « هشام » يقبض على يدى حتى لا أتسلل منه ، وأذوب فى خضم الحياة فيفقدنى . . ترمقيننى يا أمى . . أهو الحب ؟ الحب المحدد إقامته ؟ الحب المفروض . . الحب المتخير عن طريق العقل والمساومات والمعادلات ؟ مرتبك يا «آمال» بالإضافة إلى مرتبه وبما يملك من عقار وأرض . . تتكون أسرة سعيدة . . مدعمة منذ البداية . عظيم . ولا تربط قرابة بينكما . . والنسل سيكون صحيحاً . . سليماً . . خالياً . . من الأمراض الوراثية بالذات ، وهو . هو يرعانى ، يلمحنى . يبتسم لى . يفخر بى . ولا شىء . . لم أر ولم أعرف من يضاهيك . . هيئتك تنطق بأنك بالفعل لم تتجاوز الثامنة والعشرين . كلهم لا شىء بجانبك يا . حبيبى ! ورمقها « هشام » كأنه يقرأ أفكارها وأمسك بيدها ، وهمس فى أذنها بمناجاة عذبة . . ولكن ، أين هى بالضبط ؟ لقد طفح الكيل . . الشقة جاهزة ، والمهر مدفوع والشبكة فى معصمها ولا تحاولى التغرير بى يا « آمال » بدعوى أن جهازك لم يكتمل ، فالألفة توطدت ، والثقة تدعمت ، والحب رفرف علينا . . كم مضى من سنوات ؟ الأدلة المادية الثابتة تعلن أنها أربع سنوات ، همس إليه البعض ، ومعظمهم من الموثوق بهم ومنهم أيضاً أهله . . اذكر لنا « يا هشام » سبباً أو دافعاً واحداً وليكن غير معقول ، لعدم إتمام الزفاف حتى الآن . تكلم . لماذا عاون هو بطريق غير مباشر على أن تطول فترة الخطبة إلى هذا الحد . كان من الممكن جداً أن تثمر هذه الفترة طفلاً سيطرح عليه الأذكياء منهم سؤالاً : ما الذى دفعك لأن ترضى بوضع شاذ . . أهو شاذ حقا ؟ . . الحل . . الحل الأمثل هو الحسم ، يجب أن يستنطقها بالحقيقة بكل ما فيها من حلاوة ومرارة ،

ولن يسأل عن الدوافع . . فقط الحقيقة . . نعم أم لا . . رمقها مرة أخرى أخيرة قبل أن يطرح سؤاله : آمال . . يجب أن نضع النقاط فوق الحروف . . هل ستحملين اسمى فى يوم من الأيام كزوجة اخترتها عن اقتناع؟ لا أريد التواء أو غموضاً فى التعبير . . فقط نعم أم لا ؟

لم يدر « هشام » بالتحديد أكانت تتصنع الصمم أم أنها فى حقيقة أمرها قد أصيبت بذهول يحتاج إلى تشخيص ثم علاج . . وصارع نفسه ، ولكنه لم يستطع كبح جماحها ، فصرخ وقد استرد كل منهما يديه بعد أن تراخت القبضتان مثل شبكة واهية : لست كلباً أو كائناً فقد كل كرامته لتلتزمى هذا الصمت الجارح . . والتفت نصفها . . رأسها وجذعها وارتسمت ابتسامة باهتة على وجهها التائه ، وأجابته بصوت كمن عوفى أخيراً من مرض مستعص . . ماذا دهاك يا هشام ؟ لماذا تصرخ هكذا أمام الملأ واضطره الظرف الحرج أن يسترد بعضاً من أجزاء نفسه وخاصة بعد أن تلقى نظرة حديدية مصوبة من حماته إلى داخل قلبه ، فأجاب بصوت مناقض تماماً لنبرته السابقة : طرحت عليك سؤالا متضمنا الفصل فى حياتنا ومستقبلنا ، أتمنى على الله أن تكونى قد سمعته . .

وبصدق خالص لا تشوبه شائبة ، أجابت بصوت خفيض كأنها تناجى طيفاً : صدقنى يا هشام . . لم أسمع شيئاً ! وأدار لها ظهره ، ودون كلمة وداع أو استئذان . . انصرف !

* * *

مر اليوم بسلام . . مؤقت . . واجتمع شمل الأسرة . . الوالد والأم

و . . « آمال » العروس المرجو إتمام زفافها . . لم تمهلها أمها ثانية واحدة ولم ترحمها ، فقالت بعد أن قذفت على مسمع من ابنتها بكلمات متناثرة لا رابط بينها وإن كانت فى النهاية تصب فى بوتقة غضب وسخط ولوم . . أخيرا قالت :

لم أفاجأ بموقف هشام . . فقط كنت أختلف فى تحديد توقيته . . هذا الشاب اعتقد أن سيدنا أيوب قد استمد صبره منه . . وليغفر الله قولى ! وذلك لا يمنعنى من التصريح بأنه قد عاون فى خلق معضلة تفاقمت خيوطها وتعقدت حتى استحال فكها . . آمال . . يا حبيبتى ، ماذا تظنين فى نفسك وشخصيتك ؟ إن الطبيعة لم تخلق لك نداً ؟ ثم ما هذه السلبية فى تصرفاتك حياله ؟ كل منا – نحن الأمهات – نتمنى أن تعيش بناتنا معنا إلى ما لا نهاية . . لكن الأمنيات شىء والحقائق شىء آخر . . فى تلك الفترة التى غبت فيها عن أبيك عندما كنت أمرض أبى عليه رحمة الله . . ربما أكون قد تهاونت فى رعايتك أنت وإخوتك ولم يكن لى يد فى ذلك .

و . . ولم تعد « آمال » تسمع شيئاً . . حبيبها الذى رعته فى غياب أمها . . حبيبها الذى لم يغب عن محياها إلا لحظات قصاراً . . كان مثلها الأعلى الذى يعبر عن قمة نضج شخصية الرجل فى الحياة . . حاولت أكثر من مرة – ونجحت – فى أن ترفض كل عريس تقدم لها . . ولكن « هشام » . . اكتملت صفاته ، ولم تستطع رفضه برغم يقينها أنه لم يستحوذ على أى جزء من نفسها إذا ما قورن بحبيبها صاحب القميص الأرجوانى والسروال الأسود – الذى يهوى لعبة التنس على حين أن ضحكاته تملأ الملعب ، وحنانه يضىء عليها كظلال

أجنحة الطيور الدافئة . . كم حسدت أمها وتحسدها لأنها (الوحيدة . . الوحيدة) التى ستبقى بجواره !

وحان وقت الكلام المفيد ، ورمقها أبوها بعينين خاليتين من أية مودة . . وقد بدأت الحقيقة تتجلى أمام عينيه بوضوح قال : آمال . . اسمعينى كطالبة تتلقى من أستاذها الطبيب معلومة قد تفيدها وتفيد أبناءها من بعدها ، النموذج الأمثل الذى تعشقينه باق أمامك ولا بأس بذلك . . المشاعر الوجدانية التى تربط بينك وبين أمك وإخوتك . . وأبيك من نوع فريد . . إنها باقية وستبقى طالما نحن نعيش على هذه الأرض ، أما مشاعر الجنسين فشىء آخر ، مختلف تماماً ! أفيقى يا آمال . . لست النموذج الذى يمثل القديسين . كل منا فى حياته أسرار قد لا يجرؤ على أن يصرح بها حتى لنفسه . . أفيقى وأسرعى بمصالحة « هشام » الذى تتمنى الارتباط به أية فتاة مكتملة ، واخرجى معه للنزهة كل يوم . . أتسمعيننى . . ؟ كل يوم . لتتحرري تماماً من الارتباط بى . . بأبيك !

وشخصت إليه « آمال » رنت إلى قميصه الأحمر وسرواله الأسود ونكست رأسها . . لقد خرجت من قوقعتها الحالكة الظلام – دون تمهيد – إلى الدنيا الواسعة ، وقد دهمتها أنوارها الساطعة القوية .

فكادت تطفئ نور عينيها !

سكر نبات

هذا ما كنت أسعى إليه من زمن . . الهدوء . . استتباب الأمن . . الطبيعة بكامل أرديتها البسيطة الأنيقة . . لا يخلو المكان من أى شىء حتى الدواجن ، ما أجمل أن أتطلع من تلك الشرفة المنبسطة فأطبق كل ما كانت تسمح به مخيلتى من رؤيا محدودة متواضعة آن لها أن تتحقق .

القاهرة بضجيجها واكتظاظ الناس بها انحسرت تماماً بكل حلاوتها – عن هذه الضاحية الرائعة . . لم ألتهم كل هذا الجمال دفعة واحدة ؟

لماذا لا أرتشف العسل رشفة . . رشفة . . فهناك من سألقنها جزءاً مما شاهدته وبعض مما اختزنته وبعض مما أؤمل تحقيقه .

– حسن أيها الأخ العزيز . . كل الحقائب وصلت بالتمام . . . شكراً لك ففيض شقيقتى ستصل فى الوقت المناسب . يبدو أن روح التعاون لا تنقص هؤلاء

الناس فسرعان ما بادر هذا العامل يحمل الحقائب ، على أية حال يجب – إذا ما طبقت قواعد النظام – أن أنضو عنى ملابس السفر وأرتدى ثوباً فضفاضاً مريحاً لأكون على أهبة لتنسيق هذا العش الرائع ، سأخبرك ياتوءم النفس والروح بثينة . . أن ما شاهدته بعينى ونفسى وقلبى يفوق كل ماكنت أتصوره أو أصبو إليه . . لا بد أنك ستلحقين بى فى النهار على أقصى تقدير . . هل أبدأ الآن فى التنسيق أو أنتظر مجيئك أيتها العزيزة بثينة ؟

ستشاركينى فى كل شىء . . الطعام واختياره . . التنظيم الملائم لقطع الأثاث . . أملك من الوقت ما يتيح لى أن أجول فى الطرقات ، وأقترب من مشارف النيل ، فتنطبع جغرافية الأماكن والأشياء فى مخيلتى . . آه ما أجملها فكرة ولكن . . . !

ألا يحمل بى أن أعمل على إراحة بثينة ، فأبادر بالتنسيق وتهيئة الجو الملائم وإن كانت لها وجهة نظر مختلفة نتبادل الرأى والمشورة ، لكنى واثقة تماماً من أننى سألبى احتياجاتها .

فراشان منفصلان منسقان . . الملاءات ذوات مقاس واحد . . والوسادات والحشيات كأننا معاً . . بل إننا بالتأكيد معاً . . أقرأ أفكارها . . بثينة تحب اللون الوردى . . . حتما اننى أيضا أحب هذا اللون سوف نستمتع أيما استمتاع بالإنصات إلى زقزقة العصافير فور استيقاظها من نوم طويل عميق مريح .

أفرك يدى بعضها ببعض بهجة وحماساً فأنا أعيش لك ومن أجلك يابثينة . . لقد فقدنا والدينا . . كل على التوالى . . لم يبق إلّانا . . حتى الزواج لابد أن يتم لنا معاً وفى أمسية واحدة أليس كذلك يابثينة ؟ . . بودى أن تسرع

الساعات لأشاهدك وأحتضنك فى صدرى الذى يلهث دائماً بالدعاء لك ، أنسيت أننى أكبرك بدقائق والآن هيا . . إلى العمل هيا

* * *

أمسك المدير نظارته بيده ، ووضعها بإحكام على عينيه ، لكنه سرعان ما انتزعها بسرعة وعصبية قائلاً لسكرتيره . .

إذن فقد وصلت الموظفة الجديدة

نعم ياسيادة المدير

مارأيك فيها ؟

وعبثت أصابع السكرتير ببعض أطراف الأوراق المرصوصة بنظام على المكتب المصقول . . .

أعتقد أنها معقولة ياسيدى إلا أنها . أنها . .

وفجأة تكورت الأوراق المنتظمة بين أصابعه ، وأحدثت خشخشة أضفت على الجو شيئاً من التوتر . .

إن انتزاع النظارة للمرة الثانية فى خلال دقائق يشى بهذا الجو المكهرب بلا مبرر .

ماذا عندك لتقوله يا سعيد ؟

ثم أضاف المدير بسرعة :

أعنى ما الذى تريد إخفاءه ؟

لا داعى لأن تجول النظارة بين يديك وعينيك ياعزيزى . . هاك ماتريد سماعه .

إنها جميلة جدًّا . . أنت تعرف أن الضاحية منعزلة . . رجالها كثيرون ، معظم أسرهم يقيمون بعيداً عنهم . . إذن فقد استبدلت لعبة النظارة بخبط أصابعك على المكتب لا بأس ، فهى تحدث نغماً لا بأس به .

أهى متزوجة ؟ . . أعنى أهى بمفردها ؟

فى الواقع يا سيدى أنها لم تتزوج بعد . . لها شقيقة توءم ستقيم معها . . هى أيضاً تعمل بالضاحية التى تبعد عن مصنعنا بساعة يقطعها الأوتوبيس .

هيه ! . . هذه معلومات لا بأس بها ، أعتقد أن جمالها المزعوم لا دخل له فى وظيفتها ما دامت تؤدى عملها على وجه أكمل ، أرجو ألا تخلع بإضافتك شيئاً يطمس الحقيقة أو يغلفها بغلاف زائف ! . المرجو أن تقدموا لها المعونة الكافية ؛ فهى جديدة كما تعلم ، ولن يستغرق الأمر أكثر من أسبوع حتى تتعرف على دقائق عملها .

هل أقول لك ياسيادة المدير : إننى شاهدتها عصر اليوم الذى وصلت فيه من بلدتها التى تحاذى شاطئ النيل تنهل بعينيها الوسنانتين من كل ما تجود به الطبيعة ؟ . . يبدو أن الشاطئ الآخر يشد انتباهها أيضا فقد تمعنت فى مراقبتها . . ما أجمل أن نستمتع برؤية فتاة حلوة من على بعد دون أن تحس بنا حتى تكون الرؤيا كاملة !

* * *

العمال يتوافدون فى طابور غير منتظم تماماً يمرقون من بوابة المصنع ذات الأسلاك . . الكلمات المنفعلة والأخبار المتقطعة والشكوى المركزة تنهال من فم إلى أذن بسرعة وضجة ، والترولى الصغير يسير على القضبان يشارك بدوره فى

إعلان صبيحة يوم من أيام العمل وجمالات تسير الهوينى . . وابتسامة مشرقة تعلو محياها . . لقد وصلت لتوها من مساكن الموظفين مارة بطريق ضيق نظيف منسق الأشجار تحوط به من كل جانب ، ترصعها أزهار من أبهج الألوان ، هل يمكن أن يعيد التاريخ نفسه . . أو أن بلدتها الأولى التى قضت فيها معظم طفولتها تمت بصلة قربى إلى هذه الضاحية ؟ . . تماماً كعلاقة بثينة بها توءمان من بطن واحد . . . ولحظة واحدة . . هل يمكن أن تملأ صورة بثينة ذهنها إلى أمد طويل . . بعد الزواج مثلاً ؟ وهل سيكون ذلك مدعاة لغيرة الزوج ؟ . . مالها تسبق الحوادث هكذا ؟ . إنها الآن فى طريقها لتسلم العمل ولا مجال الآن للتمزق الفكرى . . يجب أن تركز . . أن تركز . . أن تركز . . هذه الكلمة . . هذه النصيحة تصاحبها دائماً كيف تنساها ؟ . كيف تنتزعها من خلايا مخها والمدرسة والأم . . والأب معا يرددون :

ركزى فكرك ياجمالات ركزى . . ركزى

احترسى يا آنسة . . الترولى أمامك .

لقد كادت قدمى تتوه بين القضبان . . شكراً لك أيها العامل . . إنكم طيبون . . طيبون تماماً . . لا بد أن أكون أنا الأخرى طيبة أليس كذلك ؟

مصنع سكر وتقطير . . أحببت الحلوى دائماً . . وهى أيضاً أحبته . . لا ، لم تحبه . . بثينة لم تحب السكر قط . . لقد كنت ألقمها بعض قطع سكر النبات .

فكانت تقذفها من بين أسنانها . . إنك ياجمالات تختارين لى دائماً الأشياء التى تؤلمنى حقيقة أنه سكر . . لكنه يؤذى أسنانى فكأننى أمضغ حصى !

حصى ! . . حصى ! . تحت أقدامى . . وحذائى مفتوح من أمام وما بين أصابع قدمى يئن ، ولكن ليس عن عمد . . ليس عن عمد قط يابثينة . . هكذا شاءت الظروف أو . . أو . .

من هذا الباب يا آنسة . . هنا فقط يثبت الزوار حضورهم ببعض الإجراءات ، أما أنت فنا وعلينا تفضلى من هنا .

نعم . . الدخول كل يوم من هنا . . من هذا الباب ما أجمل (اللوحات) ! . القصب نبات حى وهام فى بلادنا ، ومنه يستخرج السكر الخام ، ثم معالجات كيمياوية وترسيخ وتصفية لا ، ليس الآن وقت قراءة اللوحات . .

— ركزى فكرك يا جمالات . ركزى فكرك . .

لمعت عينا جمالات واتسعت حدقتاهما . وامتدت يد حنون تسند ظهرها .

— تمهلى يا آنسة ، فالسلالم ضيقة حلزونية . احترسى نعم هكذا .

أول يوم دائماً لا ينسى ، أول يوم فى دخول المدرسة ، أول يوم اكتشفت فيه تحويلها من طفل إلى شابة بالفعل ، أول يوم حصلت فيه على هدية رقيقة بمناسبة عيد ميلادها . أول أيام الامتحان نعم . إن اليوم برغم حلاوته لا يخلو من توتر . اختبار مغاليق أسرار هذا المصنع . ستغدو صاحبة مرتب شهرى . . كانت فيما مضى مستهلكة ، أما اليوم فستتحول من مستهلكة فقط إلى مستهلكة ومنتجة .

يغلفها الآن رداء شفاف يضفى عليها الشعور بالراحة المقرورة كالأغلفة التى تصون عيدان القصب ، فى مدة وجيزة تريد أن تنمو وتتبلور . فتصبح « سكر

كريستال » . . أو ما يطلق عليه سكر نبات . . من يصدق أن عصير القصب يتحول بمهارة عقول بشرية إلى طاقات حرارية . ستقبض مرتبها وتدخر منه الكثير . الكثير جدًّا . لتضفى على بثينة حياة رَغْداً هنية . ولتزيل من نفسها وذهنها تماماً أنها تلقمها الأشياء الصعبة المؤلمة .

وما زال الطنين فى أذنيها . .

لا بد أن هذا باب حجرة المدير فالموظفون يقفون فى أدب واهتمام وعددهم كبير ، لكن هيئتهم تختلف تماما وهيئة من دخلوا من البوابة الأولى ، فالكياسة لا تنقصهم ، وهدوء أعصابهم واضح تماماً فى تصرفهم . أهكذا ؟ إنهم ينادونها . .

– تعالى ياآنسة

المدير ذو وجه باش . . وعينان متألقتان مرحبتان : مكتبك فى الحجرة المجاورة ، زميلك سيطلعك على طبيعة عملك إن أردت الاستفسار عن أى شىء ، الكل طوع أمرك ، كلنا هنا أسرة واحدة . . لسنا كأى هيئة نلتقى صباحاً ثم نفترق مساء ، بل جميعاً معاً نكوّن عائلة مترابطة متماسكة متآزرة حظا سعيداً . .

هأنذا أمد يدى إليك يا بثينة ، فلا بد أنك رجعت من مصنعك المجاور لهذه الضاحية ، لقد كان نصيبك هناك فى بلدة أخرى . ربما أرادت الطبيعة أن نتجاور دائماً . كل منا تحكى للأخرى ما شاهدته فى مصنعها ، أليس هذا ترتيباً جميلاً ؟ . . ما أجملك يابثينة ؟ فى ملامحنا اختلاف طفيف كدنا – كدنا – نحن أصحابه – أن يختلط علينا الأمر : فمرة أحسبك أنا ، ومرة تعتقدين جازمة أننى

أنت ! لم يطلق نعت (توءمين) جزافاً . . شكراً لكما أمى وأبى . . أتودين الاستماع لما صادفته فى يومى الأول . هاك إذن . .

امتدت يد جمالات تلمس إطار المرآة بحنو ورقة ، ثم أشاحت بوجهها ، ولمعت فى عينيها دمعتان سرعان ما ازدردتهما وتحولتا فى مخيلتها إلى قطعتين من سكر النبات !

سكر النبات يحتاج إلى عشرين يوماً يختزن فى حجرة التحميض مرصوصاً فى قصعات ممثلاً فى مرحلة من مراحله الوسطى السوائل وفى النهاية ، فى النهاية يتحول إلى كريستالات .

ترى بعد مضى عشرين يوماً تتحولين أنت يابثينة إلى عاملة إيجابية فتفتحين لى صدرك وذراعيك وتبثينى عواطفك وكل ما يعتمل فى نفسك .

حسن ، إننى دائماً أمثل الطرف الإيجابى ، لقد وعدتك بالسرد . . ستمتد سعادتى وتشمل الضاحية كلها عندما أرى الابتسامة ترف على شفتيك وأنت تصغين لى مجرد إصغاء ، حتى لو كان متضمنا اعتراضاً أو استنكاراً :

— زميلى لطيف جداً ، أنسيت أننى دائماً كنت أصبو لمواصفات معينة فى زوج المستقبل . لا ، طبعاً أعرف ما ستعقبين به ، لا تسبق الحوادث يا جمالات ، إلا أننى لا أريد أن أغمط نفسى حقها فأشرح باقتضاب إحساسى الأول عندما شاهدته .

هؤلاء الناس جميعاً بلا استثناء حوّلهم السكر إلى وجوه باشة حلوة ، نعم حلوة يابثينة بكل ما فى الكلمة من معنى ! زهدى زميلى أطلعنى على طبيعة عملى وكأننى سأضفى عليه ثوباً قشيباً موشى بأسلاك ذهبية ، وقال لى فى سياق حديثه

وكأنه يبنى معى طوابق أحلام سامقة فيها كل ما تصبو إليه أى نفس بشرية طموح خلاقة :

كل مكان فى هذه الضاحية يؤدى دوراً ، لا تتخيلى كيف أن عود قصب واحداً ممكن أن يبنى حقلاً ومصنعاً وأسراً حتى مصاصة القصب ممكن تحولها إلى لب ورق على هيئة شرائح تطوى كالأثواب سواء بسواء . . مالك لا تجاوبينى يا بثينة ؟ فلا أراك إلا عندما يحلو لك أن تتطلعى إلى نفسك فى المرآة ، عند ذلك فقط نلتقى ، أعترف بأننى دللتك كثيراً ، وخاصة بعد وفاة والدينا على التوالى ، ولكن لا أستطيع أن أواصل دورى فى المنح فقط . تمنى فيما وصلت إليه . كنت مستهلكة فأصبحت مستهلكة ومنتجة أيضاً . أتغضبين ؟ لا أحب أن أرى حبات السكر فى عينيك .

تعالى معى نجول على شاطئ النيل ؛ فقد حان الوقت كى أسمع منك كيف واجهت يومك الأول فى مصنع العطور ؟ ما زلت تترددين فى مد يديك إلى ! أهكذا يا بثينة !

بعد أن تعبت طوال النهار فى إعداد هذا العش الجميل ؟

* * *

لكل وقت مذاقه وحلاوته . الآن حان وقت القراءة ، ربما أتصفح بعض الكتب ثم أختار منها ما يناسب مزاجى هذه الأيام . هل أقول القصص هى التى ستطفو على سطح تفكيرى وأى نوع من القصص العاطفى مثلا على التوالى ؟ مرت الأيام كأنها سريعة ، كأنها بطيئة ، أضفيت ياجمالات روح الجمال

والإشعاع فى مكتبنا معاً . لقد حان الوقت ، لتجتمع فى مكان آخر تزينه الأفكار التى ربما تقرب ما بيننا . .

لا يعقل أننى بمجرد تفكيرى فى طيفك تهلين على كتهويمة من تهويمات أحلامى وأمنياتى ، ما زالت نظراتك شاردة ساهمة ، أحسبك أحيانا ما زلت فى بلدة أخرى وأن هيكلك فقط يؤكد حتمية التنقل ؟ هل ألفت انتباهك ، أو أتخيرها فرصة سانحة لأختبر مدى اهتمامك بى إن كان هناك اهتمام . من أى نوع ؟

بدأت ابتسامة تنبثق من بين شفتيك ونظرة منيقظة تشع من عينيك الوسنانتين ، ما أسعدنى اليوم ! ما أسعدنى !

شرفت المكتبة يا آنسة جمالات

برغم أن بثينة شقيقتى التوءم تحتل جل تفكيرى وعظيم اهتمامى فإنك تشد يدى إلى عالم الواقع ! لست أدرى بالتحديد : أهى جولة من جولات آخر النهار أم أن قدمى ساقتنى إلى هنا عن عمد ؟

. النتيجة أننا معاً فى ركن ناء .

يسعدنى ياسيد زهدى أن يحدث التعارف بينى وبين هذه المكتبة المنسقة عن طريقك كما سبق وأضفيت على من كرمك الكثير .

بل ما أسعدنى أنا ! البلدة كلها ترحب بك وشقيقتك التوءم أيضاً التى تعمل فى ضاحية أخرى ، كم أود أن أنتقى لك عديداً من الكتب تتحيرين فى أيها سيقع اختيارك لتتاح لنا أطول فرصة ! وربما وجودى معك صباحاً يعلن أن بداية حظى فى طريقها إلىّ .

– أىّ الكتب تحبين قراءتها يا آنسة جمالات ؟

– كُتب علم النفس . .

ولماذا علم النفس بالذات ؟ألا يحسن أن نقرأ معاً عدة مسرحيات عاطفية ، أو رواية غرامية فى هذه الضاحية التى تنوء بلزاجة حلاوتها ؟

– هاك إحدى النسخ ، وأظنها من سلسلة علم النفس التكاملى . .

بئينة لم تحك لى شيئاً مما صادفها فى أيامها الأولى فى مصنع العطور . لماذا أقوم أنا بالدور الإيجابى أليست هناك عدالة ؟ ولكن رأسى يدور . الطنين مازال يلاحقنى . ركزى فكرك يا جمالات ركزى . .

مالك يا جمالات تتصفحين الكتاب الذى ناولتك إياه ؟ لم لا تصوبين نظرك إلى ولو لثوان أحس بوجودك وأنت غائبة عنى فأراك فى الصورة التى أنشدها ، أما الآن فأنت بجانبى شاردة عنى ! . هل خلقت قلوبنا لتخفق بالحب فقط أو لابد أن تكتنفه المرارة ؟كما مددت لك يدى أول يوم سأخطو أيضا أول خطوة ليلتحم بيننا الكتاب .

تعالى يا آنسة جمالات سنجول فى ممرات النادى ، ستشاهدين بنفسك أن المصنع لم يأل جهداً فى تهيئة كل العناصر الملائمة لإدخال البهجة على نفوس العمال والموظفين وقت فراغهم ، هاتى يدك ، هاتيها يا فاتنتى . . لقد وهبتك السماء لى فى ضاحية اعتقدت – حينما التحقت بوظيفتى فيها – أن السماء ستظللنى والأرض توسدنى فقط لم أتخيل أن اختيار الضاحية لى لتتلقى أرضها بذرة حبنا ! ياجمالات ما يذهلنى حقاً أنك تجمعين بين ملامح الأطياف والبشر كأبطال الإلياذة . من البشر والآلهة . !

تؤدين عملك بدقة ونظام ، لكنك فى نهاية النهار تتحولين إلى هيكل غير مرئى . . أرى حدود رأسك وكتفيك وأطرافك ، لكنى لا أستطيع أن أحس بنبضك وأن الدماء تتدفق حقا فى شرايينك !

– أستاذ زهدى . هل يقرنا جو المصنع على أن نسير معاً متشابكى الأيدى ؟ صوتك ينبعث من أعماق ليست أعماقك وليست أعماقى ، لكنها أصوات وعويل الماضى والحاضر والمجهول ! بودى أن أمد يدى لأتحقق تماماً من أنك حلم أو خيال !

– ألسنا زميلين ياجمالات ؟

– والآخرون أيضاً زملاء .

– وجهات نظرنا لم تتعارض ، فكلنا مشتركون متشابكون .

– بثينة دائماً تحذرنى الارتباط بآخرين لانعرف عنهم شيئاً سوى قشورهم .

أحس بك تتدخلين بينى وبين زهدى فى غيابك ، ألا ترين أنك تقسين على يابثينة برغم أننى أبثك كل لواعج نفسى وبرغم أنك تضنين على بالنزر اليسير ؟

* * *

صعود السلالم الحلزونية على التوالى وضجيج الآلات والسكر الحام ، ثم إذابته ومرحلة معالجته كيمياوياً – كل ذلك يطن فى أذنى وفى خلايا رأسى تماماً كالطنين الذى يصحبنى مثل تنفسى ، ركزى فكرك يا جمالات ركزى فكرك . .

ومع ذلك كم أحبهم هؤلاء الناس لسنا زملاء متعاونين متفاهمين مشتركين فى عمل واحد . . ومنطقة واحدة ، لكننا كتلة متراصة واحدة كسكر النبات داخل القصعات . !

قال السيد العامل اليدوى لزميله مصوباً نظره إلى جمالات – ألا تراها ساهمة أكثر مما ينبغى . . إنها شخصية محيرة ياصديقى ! . ما رأيك ؟

انحنى الزميل محاولاً إحكام الوعاء وتثبيته على الأرض ، وأجاب دون أن يحاول الالتفات : جمالات تشغل أذهان الجميع مع أن المصنع تعمل فيه موظفات شابات كثيرات ! أنا شخصيا لم ألق إليها بالاً برغم سماعى عنها الكثير ! ماذا سمعت بالتحديد ؟

جولانها ساعات الغروب على شاطئ النيل ووقوفها فى بقعة معينة ثم تطلعها الدائم إلى شرفة شقتها .

– لعلها تنتظر رجوع أختها التوءم ، أو تتلهف للاطمئنان عليها .

– جائز ، هل شاهدت أختها ؟

وضحك العامل حتى كاد الإناء ينضح بما فيه ، وهل تستطيع التفرقة بين رؤية توءمين ؟

أحس بأننى محور حديثكم جميعاً . ما مكانتى بالتحديد بينكم ؟ . أناقون على أم راضون ؟ الدهشة ترتسم على محياكم ، وأسمع حديث عيونكم . . لا ، لا يمكن أن تكونوا طيبين . . أنوى أن أؤدى عملى ، لقد طلب منى أن أشرف على العمل . . لن أبقى طويلاً فالعيون تحاصرنى والأصابع تطول وتمتد مشيرة إلىّ تكاد تتحول إلى أخطبوط يلتف حول عنقى وصدرى وخصرى ! أكاد أختنق . أكاد أختنق .

* * *

ممدة على سرير أبيض كطيف من أطياف الأحلام والخيالات ، وزهدى

بجانبها والطبيب ، ربما أرهقتها أعباء العمل . وأعباء البيت وانتظار مجيء أختها التوءم .

ثم انكبابها على القراءة الليلية الدائبة . . مازالت فى إغفائها ، عند صحوها تطلق صرخات معولة ، وفجأة تلتزم الصمت . أختها ليست بجانبها . غائبة هناك فى البلدة المجاورة مندسة بين زملائها فى مصنع العطور التى تدير رأسها وتسلمها لدوار خفيف هكذا تقول جمالات عن بثينة ويوم الحفل قريب . . حفل تكريم موظف محبوب بمناسبة انتقاله إلى بلدة أخرى . متشوقون جميعاً لرؤية جمالات فى أحسن زينة . وأجمل رؤية وأحلى ابتسامة أين هى الآن ؟

من فضلكم يا إخوان ابتعدوا قدر الإمكان ، الآنسة جمالات بخير ، وتحتاج إلى الراحة التامة ، التامة جدًّا لن يبقى معها إلا فردان أو ثلاثة على الأكثر . افتحوا جزءاً من النافذة أشعة الشمس والهواء ستصافح وجهها ربما ترتد إليه دمويته .

لقد كنت أتوقع ذلك من مدة ، كاشفتك ياجمالات بمخاوفى ونحن فى المكتبة . رأيت وجهك وزوغان عينيك ، بعثت إليك بأحب أجزاء قلبى تعلنك عن مخاوفى . . لكنك ضحكت وقلت بصوتك الرقيق . .

– بثينة ترعانى ياسيد زهدى فاطمئن . .

نحن معك نرعاك ياجمالات كُلٌ على حدة . قال لى العمال وقالوا للطبيب أيضاً : إنها فى أثناء صعودها درجات السلم الحلزونية كانت تمسك برأسها ، حاصرها اثنان من العمال ، صوبت إليهما نظرة ، قالا : إن فيها اتهاماً صارخاً بأنها كانت موضوع حديثهما ، وفجأة التوت عضلات وجهها ، ثم أصيبت

بحمى شخصها الطبيب بحمى نفسية . . غريب أمر شباب هذا العصر ! .

لم يبق سواى والطبيب ياجمالات بجانبك برغم أنك ترددين اسم بثينة كيف الوصول إليها ؟

نعم يازهدى أراك من حين لآخر بين صحوى ومنامى ، بدأت تحتل مكاناً كبيراً من ذهنى ونفسى وقلبى . لكن بثينة ، أأتركها هناك فى مصنع العطور مرتدية رداءها الأبيض المعملى تنتقل أنابيب الاختبار بين أصابعها كأنما تعزف على معزف يرسل ألحاناً شجية حزينة . من لى بها الآن ؟ من لى بها ؟ بثينة . . أريد أن أراها . .

علا صراخ جمالات ولم يسكته إلا حقنة مهدئة ونظرة رثاء متبادلة بين زهدى والطبيب .

* * *

هذه الأمسية ينتظرها زهدى وأتمنى مجيئها أنا أيضاً ، قدماى تأخذاننى إلى هناك إلى شاطئ النيل ، العمال يتوافدون من مراكب متوسطة الحجم يحملون بين أيديهم لباب الورق على هيئة شرائح مطوية كأنها أثواب لا نهاية لها والشريط الحديدى الضيق يحمل فوقه أحواضاً متشابكة مترابطة . يبدأ العامل الأول ممسكاً بلفائف يأخذها الثانى والثالث وهكذا . مالى أنا لا أكاد أخطو خطوة حتى أتراجع إلى الوراء منذ وعيت . منذ وعيت . وأنا الملومة . الملومة دائماً ؟ بثينة تصغرنى ليكن بدقائق . أو . . لحظات . لكنها فى نهاية الأمر تصغرنى . وأمى وأبى ذوا شأن فى السيطرة والإرشادات يوجهان إلى اللوم حتى كانت تلك اللحظة . اللحظة . لكنها بالتأكيد لم تحدث . لم تحدث . لم تحدث على

الإطلاق . . لعلها أوهام . أو ربما رواسب أحلام وتهويمات . .

إننى الآن على شاطئ النيل والعمال أمامى يتوافدون واحداً إثر الآخر . كالأيام تتوالى . تمر وفى النهاية يتم كل شىء ، يتم الشحن وتصنيع اللفائف إلى أوراق . كل شىء فى النهاية يأخذ صورته الكاملة ، مالى أنا والذكريات ؟ لابد أن أعيش لحظتى . عيناى تتفلتان منى تخترقان زجاج نافذة حجرتى تتطلعان إلى فراشك يابثينة ! هل رجعت من البلدة ؟ هل تركت المصنع ؟ هل تنتظرينى كما أنتظرك ؟ وكما انتظرتك دائماً وأبداً . .

أجيبينى . كاد العمال أن ينتهوا من عملهم ومازلت فى صمتك . ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع ؟

هاهى ذى حجرة رئيس العمال سأنتظر قليلاً ريثماً ألتقط أنفاسى . . صورتك يازهدى تحتل تفكيرى . ألا ترى أنك تشغل الحيز الشاغر دائماً عندما أنتظر بثينة ويتأخر رجوعها ؟

نافذة الحجرة من الخشب الحبيبى ، من يصدق أن ذلك كله من مصاصة القصب . مصاصة ، مصاصة . .

أتذكرين يابثينة فى طفولتنا معاً . . عندما كنا نلتهم المصاصات وكأنها أشهى ما جادت به الدنيا علينا ، وعندما كنا فى الشرفة لا بل على السطح أصررت أن تسيرى بحذق ومهارة على السور ؟ تماماً كهذه الطيور التى تحلق فى مياه النيل أراها من النافذة المفتوحة ، ألم يحن الوقت كى أرجع إلى شقتى ؟ لابد أن أشرك بثينة معى فى اختيار الثوب الملائم الذى أحضر به الحفلة ، لولا الطرقات

الصغيرة الملتوية المزينة بأشجار ذات زهور براقة لاعتقدت أن بين الشاطئ وشقتى أشواطاً بعيدة !

سرعان ما فتحت صوان الملابس هأنتذى يابثينة تتجملين كعهدى بك فى المرآة . . ما رأيك فى هذا الثوب الأخضر . تحبينه ؟ لا تحبينه ؟ لماذا لا تستقرين على رأى ؟ هكذا أنت دائماً . . تحيريننى برغم ما أبذله لإسعادك . . على كلٍّ لقد استقر رأيى على الثوب الأخضر ! .

إنى واثقة من أنه سينال إعجاب زهدى ، لقد حان الوقت لأحسم الموقف ، لن أشركك هذه المرة فى اختيار الثوب بل فى اختيار العريس . حتى تتأهبى لاختيار شريك حياتك أنت أيضا . ألم تتواعد أم لعلك نسيت ؟

* * *

الفتيات الشابات يمرحن كأنه عيدهن ، لماذا لم أوطد صلتى بواحدة منهن ؟ كانت ستغنينى قطعاً عن الفراغ الذى أحس به فى لوعة غياب عزيزتى بثينة . مالهن هكذا ينظرن إلى شزرا ؟ هذه مثلاً تصوب إلى نظرات كأنها لهب من لهيب المصنع ! وتلك تهمس فى أذن الأخرى . . مالى من شىء . . أم لعل هناك نقصاً لم أكتشفه بعد ! لعله فى ثوبى أو شعرى : أو فى قسمات وجهى . بثينة جميلة مثلى تماماً ألسنا توءمين ؟ . . لم تشك لى مرة واحدة من تعليق نابٍ قيل عنها ، ولكن هؤلاء كيف أهرب منهن ؟ هذه الشرفة خالية . تصفها معتم سألوذ بها .

للمرة (الثانية) فى هذه الأمسية أسمع تغريد ذلك البلبل . . ماهذا . . يد

توضع على كتفى ؟ أيطاردوننى حتى الشرفة ؟ لقد استفحل الأمر !

– من زهدى ؟

ما أجمل أصابعك عندما تهمس لأناملى معك . . معك فى كل مكان خذها بين راحتيك ياحبيبى ولكن أأنت حبيبى حقًّا !

انتظرتك من الخامسة عصراً ياجمالات . . أين أنت ؟ . . أين كنت ؟ لماذا تريدين لى أن أنقب وأبحث عنك على الدوام ؟ حقيقة كنت أبحث عنك من سنوات فإذا بك بيننا جميعاً ، لا تضنى على بلحظة اللقاء ، لا تحوليه إلى لقاء الفراق ! جمالات . أما آن لنا أن نتكاشف ؟ أسمعينى صوتك العذب . .

– ينظرن إلى شزرا . .

– من ياحياتى ؟

– الموظفات

– أيعقل هذا ؟

– سلهن ؟

– بل أسأل قلبى ونفسى وعينى . أسألك أنت يانور المصنع المتلألئ . . !

لمعت عيناها وانعكست الأنوار الملونة على شعرها فحولتها إلى تمثال إغريقى أسطورى ، لم يتمالك زهدى نفسه ، أحاطها بذراعه يسندها ، يضمها ، يحس بكيانهما معاً فى لحظة ارتقبها بعد أن تخيلها مراراً .

تعالى معى فى الداخل ياجمالات ما أمتعها لحظة حينما يروننا معاً فى النور ! أليس جميلاً أن نعلن ارتباطنا وسط أسرة عايشناها فترة ليست بالقصيرة ؟

لقد حانت اللحظة الحاسمة يازهدى هل أحس حقا بأننى على شفا حياة

سعيدة جديدة . . أو أنني على شفا هاوية سحيقة ؟ سحيقة لماذا تنبثقين لى دائما يابثينة وأنا فى أوج بهجتى . . زهدى يريد أن يخطبنى إلى نفسه اللحظة الرائعة الممتعة التى تنتظرها كل فتاة . . حصلت على وظيفة بعد أن أتممت تعليمى مثبتاً بشهادة عالية ولى طموحى أيضاً . ولكن كل ذلك يبخر تماماً كما تحترق قوالب السكر وتتحول إلى فحم أسود كريه . عندما أتذكر تلك الهاوية . وأنت تسيرين على سور السطح . كنت كثيرة الحركة يابثينة . ويقولون : إن ما كان يميز بيننا هو صخبك الدائم . وهدوئى البادى . وعلى ذلك فقد . . . . لا . .

لن أتزوج يابثينة بما أنك لم تعثرى بعد على شريك حياتك ! سأنتظرك . يتم الاتفاق بيننا ، أترينهم فى الأركان يابثينة منبثين فى كل مكان ؟ النساء أولاً ثم الرجال . العمال . الرؤساء . حتى زهدى أيضاً يرمقنى بهلع . .

ارتجف زهدى وامتدت يداه سريعاً على التوالى عندما فوجئ بصراخ جمالات الحاد ثم محاولتها الهروب من الحفل بالجرى السريع .

كأنما يريد أن يحتضن الهواء الذى كان يحيط بها ، ساد الهرج وكثر اللغط وظهر رأس المدير ثم كتفاه ، وأخيراً انفض الجميع من حوله بعد أن أخرج منديله من جيبه يمسح به عرقاً غزيراً تصبب من جبهته

دخل زهدى مطأطئ الرأس على السيد المدير وقال بتخاذل : ترى ما الذى ستسفر عنه الحالة ؟

رفع المدير رأسه بتؤدة من على الأوراق وقال بهدوء لم يخل من رنة حزن : لم يبق لها من دنياها سوى عمة عجوز بعثنا فى طلبها سيتكفل البعض بمسئولية إحضارها إلى هنا لنعرف الحقيقة كاملة .

أمسك زهدى برأسه الذى يكاد يفجره الصداع ، أكاد لا أصدق . كيف تنفصم شخصية جمالات إلى هذا الحد ؟

تنهد المدير . قائلاً : كنت على علم بحالتها . الطبيب المختص شرح لى ما تعانيه ، مسكينة . سيستغرق علاجها وقتاً ربما يطول . ربما يقصر . الله معها . الله معها !

من لى بمن يمنحنى صبراً يزودنى بطاقة أستطيع بها أن أمد يدى لأحب أجزاء قلبى ، اخترتك ياجمالات من بين عشرات ، لسنا حبيبين ، بل معنا ثالث دائماً إنها بثينة .

* * *

جالسة على مقعدها بكل جمالها وفتوتها وسحرها يرنو إليها زهدى بوله وإشفاق والطبيب يدخن سيجارة ويبتسم محييًا المدير قائلاً له : لولا العمة ما عرفنا شيئاً .

قال المدير متحسرا : كلنا أحسسنا بميل زهدى إلى جمالات ، واستنتجنا أن زواجاً سعيداً سيربط بينهما ، نفث الطبيب حلقات من دخان سيجارته قائلاً : كانتا معاً دائما : بثينة تحوز الإعجاب بكثرة تحركها وجاذبيتها المشعة ، أما جمالات فسحرها يكمن فى هدوئها . . كانت بثينة تزهو بخوارق تصرفاتها . تحدت أختها التوءم الطفل ذات الأعوام السبعة وقفزت إلى سور سطح البيت وسرعان ما هوت إلى الشارع جثة هامدة . أبت جمالات أن تصدق بأن أختها التوءم قد اختفت تماماً من حياتها . . ناهيك عن لوم والديها لها وأنهما كانتا معاً وقت وقوع

الحادث ، وربما لغيرة جمالات منها دفعتها بقصد أو بغير قصد إلى الفراغ الفسيح !

اقترب زهدى منهما مشاركاً فى الاستماع ، وأخيراً خرج صوته : كلنا صدقنا بوجود بثينة . . لكننا قط لم نرهما معاً . .

وضحك الطبيب . لا على انفراد ، لقد ماتت بثينة وهى فى السابعة من عمرها . .

وغمغم المدير : لقد خدعنا جميعاً . احتوانا وهم بوجود بثينة .

ابتسم الطبيب وقال : كانت بثينة موجودة بالفعل مطبوعة صورتها فى المرآة عندما كانت تقف جمالات تتأمل نفسها . .

ثم التفت إلى زهدى رابتاً على يده – لا تيئس يازهدى ستشفى بإذن الله . وسنقيم لكما حفلاً حقيقيا يشارك فيه كل من فى المصنع .

رنا زهدى إلى جمالات المستكينة فى مقعدها ، نعم يشارك فيه كل من فى المصنع ومن فى خارج المصنع ، ستشاركك أيضا فى فرحتك بثينة . بثينة الغائبة الحاضرة الوحيدة التى فى مقدورها – لو انبعثت حية . . أن تقدم الدليل الحاسم على براءتك من تهمة غيابها الأبدى . .

إلى اللقاء ياجمالات ، وسيكون قريباً كما أكاد أحدس . .

الضعف المجنون

المقاعد الخشبية المرصوصة تكون زوايا وأركانا وأحيانا أحرفا كبيرة بأكثر من لغة : والحزن جاثم فى الصدور والمكلومة تتصدر القاعة بعينين غير مقرحتين ، وربما يدهش ذلك الأبعدين لكن تصلب نظراتها التى ترميها إلى لا شىء وتحنطها الذى يثير أكثر من تساؤل – قد يكشف عن ألم من نوع فريد .

نبيلة اليافعة الجامعية المنتظرة قراراً يأتيها من مكتب العمل . الحزينة حزناً معتدلاً نصفه إيمان وواقع وبقيته حدس قد يتساوى هو والنتائج . . موت = (عذاب) .

وهناك فى صدر القاعة (اللوحة) الثمينة المتربعة على عرش شهرة عالمية من أجيال سالفة الجيوكندا كانت لفترة معقد مقارنة بينها وبين الأرملة عقيلة . لكلتيهما أعين تتشابه فى المقل والنظرة الجانبية . . وتيار اللاوعى يأتينا من نبيلة ؛

فى غمرة بأسها وقنوطها وحزنها المباغت ، تنتقل عيناها ما بين سحنة أختها عقيلة والجوكندة ، والطريف أن انطباعها الأخير تصالح هو ورأى سابق لها أبدته لنفسها ، فى هيئة عقيلة سر غريب برغم تخشب طلعتها . . وبالذات فى نظرات عينيها . . هل أبوح لك ياعقيلة بمكنون نفسى ؟ . . أنا التى تصغرك عمرا وتجربة ؟ ، كم عدد المرات التى نوهت لك فيها بما قد يحدث من نتائج كانت وأعتقد أنها مازالت – صرامتك وصلابتك موضع الأمثال والتندرات ثم الهمسات . . عقلانية أنا أخفى مشاعرى فى باطن باطن قلبى وربما أبعد من ذلك ماذا تريدون منى يانبيلة . . أن أشهر عواطفى كما يخرج السيف من غمده ! . أن أبوح وأردد وأطارد وألح على زوجى ليتيقن يقينا أنه معبودى ؟ أنت مثلاً يانبيلة ترددين دائماً أن هناك قتيلاً تقبع جثته فى قاع عينى كمال زوجى . . من القتيل ؟ ومم جاء ؟ ولماذا مات ؟ الحب ؟ أى معنى رخيص لهذه الكلمة الجوفاء . . العزاء . . الفداء . . العوض . . هباء فى هباء . . لهذا احترمنى وقدرنى ؛ وفوق كل ذلك ، كان يضرب الأخماس فى الأسداس قبل أن يلقى على بالسؤال وليكن أى سؤال ! .

ورمتها نبيلة – هذه المرة – بنظرة جانبية أتريدين الحقيقة ياعقيلة ياأختى الكبرى يامن شاهدت فى وجهها الصرامة الممزوجة بالموت . . موت الحس والإحساس . . موت الإقبال على الحياة . . حتى يوم ولدت محمداً ابنك الأوحد : بعد سنوات طويلة كان يجب أن تقفزى بعد عملية وضع عسيرة لتعبرى عن فرحة أسرة بأكملها . . لكن ابتسامتك الجانبية الواهنة المتغطرسة الكئيبة الكريهة . . ابتسامتك التى شبهتها فى يوم ما بابتسامة الجيوكندة . . ألا

رحم الله الجيوكندة كم أساءوا إليك أيتها الفاتنة : غريب وطريف أيضاً أن ترى على الحائط الأملس الوردى أحداثاً جساماً قد تبدو للبعض – غير المتفهم – أنها بلا معنى . . مات أبونا وأمنا يا عقيلة واحتوتنى جدران صدرك ذات الرائحة الجبرية وضغطت على أضلعى كأنها عوامید زنزانة من صنع أيامنا ولياليا : لم يكن لى كنف يا عزيزتى الأخت الكبرى ؛ وهل لنا اختيار عندما تشير إصبع أكبر غير بشرية إلى كائن ما ، فإذا قضى أمر . . فإنما يقول له كن فيكون . . وهنا ترتفع قامة كمال زوجك الراحل . . الرجل الوسيم الذى دفعك كى تزهى بقدراتك الفائقة على تحريكه فأحياناً يسير برأسه ومرات يتركها على وسادتك . لكنه كاملاً يكون هناك . . عندها . . عند من اختارها قلبه وعقله وكل كيانه . . لم تكونى تعرفين ولماذا تحاولين المعرفة مادامت أموره لاتعنيك ؛ إنه تماماً كعداد النور تتغير أرقامه كلما أضأت النور . . كلما استهلكته : . . الحب . . ضعف مجنون . . هذا هو رصيدك من الحياة . . لست أدرى لم خلقت هكذا ؟ أصنع الطبيعة هو أم تكوينك النفسى أم العصبى ؟ لقد شربنا من كوب واحد ورضعنا ثدى أمنا – حسب معلوماتى لم تحاول خلطه بماء كما يفعلون اليوم ، بل لقمتنا حنانها ودماءها وأنامتنا فى حناياها الدافئة . . وهأنتذى اليوم . . تتقمصين روح الجيوكندة ؛ لكن بتبديل بسيط فلا ابتسامة أو نظرة جانبية . . التشابه الوحيد غير المطعون فيه أنكما (لوحتان) .

وسمعت نبيلة صوت الأكواب وفراش يأتى ويروح ونساء معزيات بعضهن يعتذر عن القهوة السادة أو المحلاة بسكر خفيف ، وعندما يسكن صوت المقرئ تزداد الهمسات وتعلن أخبار البيوت والأزمات . . كل الأزمات فى الخارج وفى

الداخل ولا تجد نبيلة مفرًّا من النظر إلى الحائط الوردى لتراه . . هو وحده . . دون سواه المنفرد بلا معزيات أو معزين بابتسامته المشرقة بهمسه الدافئ الواعد .

خلقنا ليكتمل شملنا ، يجب أن تشكرى والدى وأبادلك التهنئة فأشكر والديك ؛ لقد أحسنوا جميعا للبشرية فأنجبانا أليس كذلك يانبيلة ؟ ها . . ها .

أهذا أوان الضحك . . كمال دفن من ساعات . . هدهدته الرمال . . ودعه الكثيرون . . وأنت هنا تحلمين أيعقل هذا ؟ لكننى لا أحلم ها هو ذا سالم بلحمه . . بدمه بإشراقاته القلبية لقد جاء يعزينى واختار الحائط الرحب كى أراه وحده ولا تراه أخريات يرتدين السواد إنه يكره هذا اللون ؛ ولقد رجوته أن يطلق شاربه فرفض قائلاً وهو يغالب ضحكه . . أفلا بد للرجولة من شعائر ؟ وهأنتذا ياسالم تزورنى . . نعم طال البعاد . . وكان الحكم حكمها « أبلة عقيلة » كانت وهى تزهو بجفاف قلبها تنعاه فى الوقت نفسه ، لقد أحبت زوجها حباً طال وطال حتى جاوز طوله الجبال ، وفجأة وبلا مقدمات انهار الجبل : دك من عل . . اكتشفت خيانة زوجها . . لا . . لم يصاحب . . لم يعشق فكل ذلك مقدور عليه قد ينجذب لواحدة ثم يسلوها بعد حين . لكن الخائنة شريكته فى الغدر . . زوجة شرعا وقانونا حمامة بيضاء وديعة مسالمة جانب العملة الآخر . . الجانب المتداول الأملس صاحب الصورة الأزلية وهكذا وقعت عقوبة الجلد على وعليك يا سالم . . يجب ألا أبادلك أى مشاعر . . لا أنت ولا غيرك ؛ أن أعيش هكذا ؟ نصف ينتظر نصفاً وإلا فلأحاول أن أكتمل وحدى لتستدير دائرتى المبتورة .

وبلغتك قرارها . . أن تقطع كل صلة لك بى وإلا فالشارع يتلقفنى . . بلا

رحمة ؛ ألم تعلن من قبل أن الحب ضعف مجنون . . الأيام وحدها أثبتت لها كل ذلك . . كمال زوجك متزوج من أخرى . . وعرفت وتيقنت ربما عن طريق الصدفة البحتة أو عن طريق وشاية أو لعله تجسس منها عليه . . النتيجة أن القرائن كانت واضحة دامغة . . لماذا تتحرك ياسالم وتخطو على الحائط . . لماذا تريد الابتعاد عني والاندماج وسط المعزيات . . صاحبات الأردية الحالكة حتى لو أضيئت الأنوار أو طمست أشعة السماء معالم الأشياء . . لأنك بعيد ياسالم . . لأنك غائب برغم حضورك فى ذكراى أتصرّ على التحرك ؟ أما زلت تصرّ ؟ أيعقل إن تنمو الظلال وتتجسم الصورة فتصبح هكذا أمامى بل الأدهى من ذلك أن تتغير اللقطة فتمد يدك لتسلم على هكذا . . البقية فى حياتك يانبيلة . . ماذا ؟ إنه أنت ياسالم أنت بلحمك ودمك ؛ لقد تحولت الرؤية إلى حقيقة أيمكن أن أضغاث الأحلام تكشف عن متغير واقعى ؟ لا لست أحلم الآن ، ودليل ذلك مشيك عدة خطوات . . واحدة اثنتين ثلاث . . أربع خمس . وهناك وقفت عندها . . عند أبلة عقيلة جلادتنا . . ليتها أصدرت حكماً بالإعدام ، فذلك مؤداه لقاء آخر فى عالم آخر ، أما أن أشعر وأتألم من آثار سياط فذلك مالا يحتمل . . ها هى ذى تبادلك كلمات . . لقد جرؤت ودخلت صومعتها ؛ لقد أنذرتك بالطرد وبالملاحقة حتى تميتك أخيراً ؛ وها هو ذا قتيل جديد . كمال ضاع فى حادث سيارة كانت ترافقه حمامته الوادعة زوجه العروس الجميلة لكنها عاشت لتتحول الفراشة إلى شرنقة تذكر عقيلة بخيانة آثارها مازالت باقية . الظرف عصيب ياسالم والحداد فى نفسى وفى قلبى ، لكنى ألمح بارقة أمل فى محياك أترانى سأرضى بهذا الوضع ؟ الشابة اليافعة التى تمثل نقلة

حلوة من جيل إلى جيل . . لقد بت أخلط بين الواقع والخيال فمنذ ثوان شاهدتك – وأقسم – على الحائط تختال بابتسامة متفائلة والآن . . ألن تحييني . . أفلا بد لالتقائنا من مصيبة تحدث . . فالمصائب تجمع الخلان ! أين أنت الآن لست بيننا ولا أرى لك ظلا على الحائط . . وها هو ذا محمد ابن عقيلة يندس بيننا بوجه كالح وحيرة بادية ؛ إنه يلجأ لى كأنما يحتمى بى منها ، فقد عزيزه وانفردت هى به . . لقد قالت أكثر من مرة إنه رمز الخيانة الدامغ سيذكرها دائماً بأبيه المخادع

وحملقت عينا عقيلة الغليظة ؛ ورنت إلى نبيلة . . ألا تعلمين ياأختاه أننى أريد حمايتك ؟ ممن ؟ ألا تعلمين ؟ منك أنت نفسك ! ثم منهم . . الآخرين . . الأوغاد الرجال : ألا تحسين بما يدور فى أعماقى ؟ ألا تعلمين أن طعنة كبريائى التى أصابت ذؤابة قلبى خرج منها خنجر ملوث بدم يكفى حقن صدور مشحونة بالحقد . . ألا تعلمين – وقد لا أقدر على البوح بهذا لنفسى – أن أوار حبى قد تفاقم ؟ فبت أريد وأده أو مزجه بحقد يروم إحياء حبيبى كمال ؛ أن أميته أنا بمعرفتى بنفسى بطريقتى المتعالية . . لا تحزنى يا نبيلة ، سالم رجل ككل الرجال وليس نبياً . . ما زلت أصر على فراقكما لأجنبك الكثير . . ها هو ذا حبيبى فى التراب وحبه ينمو فى أحشائى ليبعث من جديد بلحم ودم . . يسايرنى يناجينى يؤرقنى حتى يحين وقت اللقاء فى الأرض الخالدة .

انتهت أيام الحداد وانتهت ذكرى رؤية سالم عندما أتى للعزاء ؛ ولم يبق إلا التحسر على مافات ؛ من كلتيهما معاً . . نبيلة وعقيلة . . لمْ تتبادلا الكلمات كأن

كُلاًّ منهما كانت ضالعة فى حدث وفاة كمال ، حتى حدث بعد فترة وجيزة ما زلزل كيانهما معاً . .

عصراً أحست نبيلة بأن محمد الطفل ، بعد رجوعه من المدرسة يحمل وجهاً ذابلاً وعيوناً منكسرة النظرات ولايكاد يقوى على السير . . وحيث إن عقيلة الشامخة كالطود لا تلتفت إلى هذه الأمور التافهة فقد أدركت نبيلة . وحدها ثم مع المربية أن الطفل ليس بخير ؛ وغالبت نفسها كى تبدأ حديثاً مبتوراً مع أختها : — محمد مريض وتقلصت عضلة من قلب عقيلة وأجابت : — وعكة وستمر بخير . . تماماً يا عقيلة مثلما قدرت زوجك فالحب ضعف بجنون . . كيف أبوح بخوالج نفسى . . أتريدين أن أحتقرها ؟ لقد تزوجها وانتهى الأمر . . نعم انتهى ياعقيلة . . انتهى إلى يوم يبعثون والآن محمد الورقة غير الرابحة التى تؤكد خيانة زوجك إنه ثمرته وحده . . جنسن . . أنا معك يجب أن ينتهى كل شيء . . كل شيء سينتهى حتما لكن إلى خير . . إلى خيرى أنا . . النهاية ستكون فى مصلحتى . . وحدى . . ياعقيلة .

الستر حمراء ، ووجه محمد شاحب ، وعقيلة يبدو أنه أصابها ما يشبه اللوثة ، فهى تجس جبهة ابنها كتمثال ينحنى على زميله ؛ ونبيلة لا ترى أمامها سوى سحنة سالم أحياناً على الحائط الوردى وأحياناً أمامها جالساً على سرير محمد ويمد يده يربت كتفها . . كانت فترة طويلة وإذا بنا نلتقى فى عزاء كمال . . لقد سمحت لنا أو بالأحرى لى أنا أن أدخل صومعتها . . عقيلة جلادتنا . . أتذكرين نظراتنا عندما التقتا كان سيظل حباً سرمدياً يانبيلة ، أبلة عقيلة لا تسمح لى بدخول البيت إلا . . إلا . . إلا لعلك فهمت . . حدست أليس

كذلك ؟ ذكية أنت يا نبيلة نتيجة تحصيلك النهائى تثبت ذلك ، مالك لا تتحركين لا تخطين خطوة إيجابية ؟ ألا تريدين الارتباط بى أو على الأقل رؤياى . أين فطنتك ؟ الشىء الوحيد المؤكد هو هذا الحادث . . لم لا تقومين بخطوة إيجابية ؟ أراضية أنت عن سلبيتك هذه ؟ نحن الجيل الصاعد المتفتح . . هيا . . هيا . . شجاعة أنت بلا جدال . . بلا نفاق . . بلا مواربة . . أعلنيها . . أعلنيها يانبيلة وقومى قومة إنسان ناجح . . متفوق . . معتد بنفسه . . وتلفتت نبيلة حواليها ، من أين يأتيها هذا الصوت . . هذا الهاتف ؟ وسرعان ما مدت يدها تتحسس جبهة محمد . . أيعقل أن تنتقل إليها البرودة بهذه السرعة لكن لم لا ؟ وما الحد الفاصل بين الموت والحياة ؟

لايمكن أن تبقّى سحنتك على ما هى عليه ياعقيلة ؛ فالنبأ مروع والحدث فادح ، هكذا تلمع الدموع فى عينيك كعقد لؤلؤىّ انفرطت حباته ! والطبيب الأبله يعلن هذا النبأ . . والغريب غير المتوقع . . الذى هدم صرح آمالى وأحلام مستقبلى ، بل مستقبلنا معاً ياسالم . . الولد بخير . . أحسن منى ومنك ؛ نبضات قلبه ضعفت بعض الشىء إنه يجتاز دور النقاهة . . أبشروا خيراً كلكم . . وأنت يانبيلة اخرجى للشمس ؛ فوالله لا يحتاج للاستجمام سواك يا ابنتى العزيزة . . أهكذا تضيع منى فرصة العمر ؛ فنى وفاة محمد فرصة ناجعة للقائنا ياسالم . . الحدث الوحيد الذى يسمح لنا باللقاء ، وتبادل النظرات هو الموت . . الموت . . الموت . . أتنادينى ؟ يجب أن تكسرى القيود . . كل القيود ولا تفتعلى حدثاً كان ومازال وهما . . أهو صوتى الذى يعلن هذه الكلمات أمام الطبيب ؟ أبلة عقيلة ابحثى لك عن مربية غيرى . . ضحية جديدة تمتصين دماءها !

سأخرج للشارع حقا ؛ لكنى سأكون أسرة من أعمدة رخامية تظللها محبة وثقة ووئام . . وداعاً . . ربما تسمعين عن عنوانى . . وربما أترك لك الأرض وما عليها ؛ ليحل سلام . . سلام . . سلام . .

ابنة من رحمين

١

التحقت عندى يابثينة من فترة ليست بالقريبة ، ومع ذلك تأبين أن تتكيفى أنت وحياتك ، ولم آل جهداً فى توجيهك أو منحك حناناً ، ومع ذلك أتبين – برغم محاولتى إقناع نفسى بعد ذلك – أنه لامكان لدى قلبك كى يتقبل لمسة حنان من قلب آخر مخلص أو غير مخلص ! ما خطبك يابنتى ؟ كى أكسبك طرقت أبواباً كثيرة متعددة وأنا لا أخفى عنك أن الجدير بذلك السباق كان أنت . . . أنت التى تدركين تماماً ، وتعين مدى احتياجك لى من حيث المعونة المادية وإيواؤك وطريقة تلقينك كيف تواجهين الحياة بكل متطلباتها ، فعمرك لم يتجاوز العشرين . .

ترى ما الوسيلة ؟ . . الوسيلة (الوحيدة) الحقيقية كى تضمنى تماماً أنك لم تفقدينى أو تفتقدينى ؟

استدارت السيدة سكينة بكليتها ناحية بثينة وغصة تروح وتجيء ما بين صدرها وقلبها تحاول فى صراعها أن تخفى بها ما يعتمل فى نفسها تجاه بثينة برغم ماتبذله من تحويل شحنة طاقتها العصبية إلى ماكينة الحياكة !

القلة تتوسط عتبة النافذة المطلة على الحارة . . مهما مرت الأيام وتوالت الأشهر ستبقى الذكريات محفورة فى ذهنك يابثينة ، ربما وافقتك ياست سكينة على احتجاجاتك وسخطك على نظراً لعزوفى عن الاندماج فى جدية العمل . . لاأنكر فضلك على ياسيدة سكينة أنت تمثلين لى الأم ، يجب أن أقتنع تماماً بأن الظروف أو الأقدار أرغمتك أو أرغمتنى – يستوى الأمران – أن نكون معاً أسرة من فردين ، ألم تلاحظى أن معظم نوافذ البيوت المتواضعة فى هذا الحى الشعبى تطل من أعتابها قلل كقلتنا هذه ، بعضها يقف مختالاً تحوطه صينية نحاس ترشح منها مياه تبلل ثمار الليمون ؟

ألا يذكرك ذلك يابثينة بعهد مضى مازالت بصماته عالقة بجلدك محفورة فى ذهنك ؟

كنتما تتضاربان دائماً . . أنتما . . أبى وأمى لم أكن أدرى أيكما الظالم أو المظلوم ؟ فأنتما معاً تجيدان الصراخ والضرب والعويل يمتزج الاعتداء والإذعان والصراخ ، ويسفر ذلك كله عن مرارة تصيب نفسى وضيق يلازم صدرى . والنهاية ؟ أن ينفصل كل منكما عن الآخر ، وتتعاركا مرة أخيرة . . من أجل إبقائى ؟

أبداً بل من أجل التخلص منى ، ألست المستند الوحيد على ثمرة كرهكما ؟ كم كثرت لدينا أوانى القلل ! فسرعان ماكانت تملأ بالمياه ، وعندما ينضح

من مسامها العرق الزائد تكون فى طريقها للموت أو الكسر . . فالنهاية آتية لاريب فيها مهما تشكلت طريقة الفناء . . كيف أقنعك ياسيدة سكينة بأننى لم أعد آبه بأى إنسان بعد أن تخلت عنى أمى ولفظنى أبى ؟

رغماً عما يعتمل فى نفس بثينة من أشجان فقد اختلست بدورها النظر صوب السيدة سكينة ، وقالت بصوت مستكين خال من الحيوية :

– أنا رهن إشارتك ياخالتى . .

كلمة طيبة مذعنة ربما تمحو الكثير من عوامل الكدر . . لقد انتشلتك يا بثينة من براثن العوز والضياع !

– السيدة نفيسة بعثت بأكثر من رسول لتسلم ثوبها . . هأنتذى ترينه بين يدى كاملاً تماما لا ينقصه إلا المكوة . . وهنا يأتى دورك . .

درجات السلم التى أهبط عليها واحدة تلو واحدة . . كانت . . أوكأننى بالأمس أو أول الأمس . . الأمسيات كلها واحدة وأوائل الأمسيات أيضا واحدة ، ودرجات السلم واحدة حينما كنت طفلاً أو يافعة كيومى هذا . . الأسطر تسطر الكلمات . . الكلمات أحرف أخرجتها ألسنة أقرب الناس إلى وكأنها ألسنة لهب أو سياط شياطين !

كما أمضيت أيامى فى مضغ طعام جاف خال من الدسم والجنان أمضيتها أيضا فى الهبوط على درجات السلالم خائفة مرة . . هاربة مرة فى عجلة من أمرى معظم الأحيان . . أريد أن أجرب التريث . . مرة واحدة . . وبعدها أجرى أطير . . أسابق الزمان . . كى أنجو ، ها هى ذى الفرصة مهيأة . . لماذا لا أهبط درجات السلم على مهل . . أتأملها أتمعن فيما تنطبع عليها من أقدام . .

أقدام غيرى بطبيعة الحال . . أقدام مستريحة هانئة طويلة ممشوقة ترتفع فوقها هامات عالية وبسمات طويلة المدى سعيدة ترتشف من كل مجالات الحياة .

الثوب فى يدى . . مسئولة عنه أنا . . فى دقائق سأحوله إلى ثوب أنيق نظيف جديد . . تختال فيه صاحبته . . حينما تتيقن أنه سيضيف إلى حسنها رونقاً جديداً . . لكل امرئ حرفته يقتات منها يعيش بها ولها . . يفيد ويستفيد وأنا . . من أنا ؟ ما حرفتى ؟ وسيطة لاأكثر ولاأقل ، آخذ من ذاك لأناول تلك . . وهكذا تترى الأيام . . محظوظ أيها الثوب ! عن طريقك ستسعد امرأة انتظرت اكتمالك لتنعما معاً . . والآن . . الحارة تضمنى بين رصيفيها ترنو إلى برثاء . . لم لا ؟ هذا السباك . . يرنو إلى أيضاً ماخطبه هل أبادله حديثاً ولم ؟ ألأنه يشير إلى قائلاً :

– بنت يابثينة لم تضنين على بكلمة ؟ ألست جاركم ، أو أن العالم أقسم على الخصام ؟

معك حق ياأسطى سعد . . لو لم أتحدث لظننت أننى فى عداد الأحياء الأموات !

– كيف حالك يا أسطى سعد . . وحال الجماعة ؟

– مازال الأسطى سعد ممسكا بوابور اللحام . . اللهيب يتصاعد والزبجرة مستمرة . . تماماً كزبجرة الجماعة يابثينة . . لم تذكرينى باكتمال الكارثة ؟ أريد أن أنساها حينما أشاهدك . . أشاهد صباك ونضارتك وانطواءك العذرى الجميل . . ألا تحنين إلى صدر عريض ملىء بالحب والحنان ؟ ربما ياعزيزتى بنظرة مختلسة منك إلى وشَتْ بالكثير . .

أعاملكم كلكم ياجيرانى الأعزاء . . الكواء المحبوب الأسطى صالح زبون الست سكينة الحائكة . . عشرة طويلة بدأت قبل مجيئى ، واستمرت إلى الآن ، وربما تعمر إلى آماد طويلة . . أما أنا . . فأنتقل كثيراً من أمى لأبى لزوج أمى وزوجة أبى تماما كالفراش والحشرات . .

لماذا تصرين أيتها الذبابة على المكوث فوق أرنبة أنفى .

مالك يا بثينة هموم الدنيا مرتسمة على محياك !

وهل أضفت جديداً ياأسطى صالح . . أنغمس فى الأحزان ثم أتحول إلى موطن عتاب . . كلكم ترمقوننى . . لاأحد يعترف بحقيقة وجودى . . واحد منكم فقط تصدر منه إيماءة الرثاء . . لفتة السخرية لكزة منه لزميله لرصد مواطن أنوثتى وانطوائى . . حتى مساعد الأسطى صالح الجدع عثمان . . الوسيم البشوش . . الفقير مثلى تماماً الذى يكدح ويكد ويتلقى الإهانات مغلفة بصورة الإرشادات والتوجيه . . ولامانع من مساومات مع الشغالات ثم مهام جانبية كالسمسرة مثلا . . ماذا تريد ياعثمان . . لابد لأحدنا أن يتجه اتجاهاً آخر ، لكل منا متاعبه وحاجته الملحة لمعاونة الآخرين أم لديك طاقة المكابرة . . يبدو ذلك ؛ فحديثك هذا ينبئ عن طموح سابق لأوانه . .

– ياصباح القشدة والفل والياسمين عليك يابثينة ، نهارنا نادٍ بإذن الله . .

بسمة خجلى لم أستطع التغلب على إخفائها أو طمسها . . كلمة حلوة نابعة من القلب بلا مصالح شخصية تصيب الكبد بالسهم . . بودى أن أسايرك ياعثمان ، ولكن ما باليد حيلة . . !

– لن أوصيك ياعم صالح بالثوب ، الست سكينة ترجوك أن تعجل بكيه

صاحبته فى عجلة من أمرها والأجر جاهز . . كلنا سنستفيد . .

تأملها عثمان دفعة واحدة ثم على مهل . . ما أجمل التطلع إليك يابثينة برغم مسحة الحزن التى تطل من أساريرك . . إلا أن هناك نداءاً خفيا يشير ناحيتى . . !

– الأضمن يابثينة أن تمكثى معنا وترجعى بالثوب معلقاً فى شماعته . . آخر حلاوة . . لو كنت بين أبى وأمى لربما استشرتهما فى اختيارى لك شريكاً لحياتى وحبيباً لإسعادى . . ولكن أين هما الآن ؟

ها هى ذى المكوة تروح وتجىء على الثوب المستكين فاتحاً ذراعيه على سعتهما تماماً كما كنت أستسلم لزوجة أبى . . فاجأها أبى ذات يوم وهى تقص شعرى . . لم تقصه كى يزداد طوله كما دأب البعض ، أو لإراحتى من حرارة قيظ الصيف ، أو لأنه لا يلائم ملامح وجهى . . أبداً . .ولأكون أكثر إيضاحاً فقد افتتن زوجة أبى فى جزه كى أتشابه تماما وكلابُ الشوارع ، فتزداد قاعتى ، وتطل دمامتى المصنوعة من أنامل حاقدة وسواعد ناقة !

الثوب تبرز فيه ومنه معالم الأنوثة برغم استكانته ، أما أنا فقد انزويت فى الأركان خجلة منسحقة ذليلة مخفية رأسى الذى تنكر لى ، فأصبحت لاأعرف إن كنت فتاة أو فتى !

وهو . . أبى ماذا قال ! كيف تصرف ؟ بماذا واجه الواقع بكل بشاعته ؟

– كما ترين ياناعسة مادام ذلك يساعدها لتلتفت إلى أعمال البيت . .

– احترس ياعثمان وأنت تدير الثوب ، لا أريد أن تصيبه أية التواءة . . البت سكينة خيرها علينا . .

– حاضر ياأسطى صالح إنى منتبه تماماً . .

منتبه تماماً . . جملة لا أنساها على الإطلاق حينما رمقنى زوج أمى فى غيابها وأنا مستكينة تماماً كهذا الثوب منزوية فى أحد الأركان محاولة إخفاء الجزء الممزق من ثوبى الرخيص القديم :

« أتهربين منى يابثينة ؟ أنسيت أننى بمثابة والدك . . لم تتفرين منى ؟ . حتى لو انكشف جزء من جسمك البض الناعم . . دعينى أخفيه وأغطيه حتى لا تنهشك العيون تعالى ياحبيبتى . . تعالىْ . . لاتدركين كم أعزك وأستريح لمصاحبتك وخاصة فى غياب أمك .

وترن ضحكته وتعلو أكثر فأكثر حينما يزداد انزوائى محاولة بانكماشى الملتاع أن تبتلعنى الحوائط فأذوب وأتلاشى !

ها هو ذا الثوب فى طريقه لأن يتخذ الشكل المرجو وأصابع الأسطى صالح تهندمه فى الشماعة وعثمان يرمينى بنظرات والهة . . كل شىء جميل جميل جدًّا . . رب اجعل أيامى حلوة ومبهجة . . هل أستجيب حقًّا لعواطف عثمان أو أن ظمئى للحنان يوحى لى أننى حقًّا محبوبة محبة ؟ والست سكينة أتحبنى حبًّا حقيقيًّا أم أن احتياجها وألفتها واتئناسها لى كل ذلك معا يوهمها بأننى جديرة بحبها ورعايتها ؟ كيف يكون كل ذلك حقيقيًّا وطبيعيًّا وأمى وأبى معاً تخليا عنى لأول ولآخر مرة يتفقان على شىء أثبت لهما بخضوعى للطرد حيث يتلقفنى الشارع ؟ هل أقتنع تماماً بأن الحقيقة ربما نجدها عند الآخرين الغرباء ؟

– حاسبى يابثينة وأنت تسيرين ولاتنسى تبليغ تحياتنا للست سكينة . .

ذهاباً وإياباً أحول الأثواب الملتوية إلى أخرى مفرودة زاهية . . مصحوبة أنا

بنظرات فاحصة من الأسطى سعد الذى يصر بجهالة على اتباع بعض تعاليم الدين فى أن تعدد الزوجات مباح ومستساغ لمن يملك ذلك !

سرعان ما ألقيت إلىّ التعليمات من الست سكينة :

– كدأبك يابثينة ومهارتك فى صنع اللفائف المستريحة ضعى هذا الثوب بعناية مراعية عدم تكسير ثنياته لتحوز رضا الست نفيسة الكريمة فى معاملتها السخية وهى تمنح البقشيش . .

وامتدت يد بثينة إلى القلة – مرطبة المياه – وأفرغت بعض الماء فى جوفها الظامئ المتشقق من حر قيظ الصيف .

٢

لك الله ياست سكينة ! لقد تحول بيتك البسيط المنسق إلى خميلة مزينة بأجمل الزهور المتفتحة ، وأنت ترمين بثينة بأجمل النظرات تحس فيها الإعجاب والانبهار مقروناً بحزن طفيف لعله مستوحىً من مشبوب عواطف الاندماج الوجدانى . . أليست تمثل ابنتك أو على أقصى تقدير أقرب الناس إلى قلبك ونفسك ؟ عثمان بجانب بثينة يمسك يدها يتحسسها يحنو عليها يعد أصابعها وأظافرها يتيقن تماماً وجودها واحتواءها بين كفيه الضخمتين اللتين تحولان الأثواب والأقمشة إلى شخوص خيالية وأشباح خاوية ينقصها التجسد .

هل فى جعبتك الكثير ياعثمان تدخره لها كما ترى فى عينيك أو أن لهفة الاستحواذ على بثينة التى تشغل جل تفكيرك ؟ سرعان ما استجبت لخطبتك

ياعثمان ثم الاقتران بك . . ساعدنى كى أنسى طفولتى المعذبة وشعورى الدائم بالضياع ، وصبّرنى على فراق الست سكينة ذات القلب الحنون والصدر الرحب . .

رنت بثينة إلى صينية القلة المحوطة بأزهار الفل ، ثم حولت بصرها وأمسكت بطرف الطرحة متحسسة أطرافها وتنهدت من قلب مفعم بالحبور . .

٣

انفض الحفل المتواضع وتهنئة الفتيات الزميلات اللائى يعملن مع بثينة . . من أخذت الست سكينة على عاتقها مهمة تلقينهن فنّ حرفة الحياكة ، ومسحت الست سكينة دمعة حارة انفلتت من زمرة دموعها وتدحرجت على الوجنة المغضنة ، وتنهدت الست سكينة من قلب خافق مرتجف للوعة الفراق . . لكن سرعان ما التأمت جروحها حينما تمعنت فيما آلت إليه بثينة . . مدت لها يداً وهى تقول :

– سأفتقدك كثيراً يابثينة ، لكن صبرى أن تفلحى فى حياتك الزوجية الجديدة أليس كذلك ياعثمان ؟ لا تبخل عليها بأى شىء . . إنها كابنتى تماماً . .

والتفت عثمان بكليته ناحية بثينة وذراعه يحوط ظهرها ، وضحك قائلاً وهو يودع الست سكينة :

– إنها فى عينى الاثنتين . . !

آخر ما تذكره بثينة وهى فى طريقها لبيتها الجديد زغاريد عالية ودعوات قلبية . . لم تسمعها طوال حياتها إلا فى تلك الأمسية السعيدة .

٤

أنى استطاعتك حقًّا يا عثمان أن تحيل حياتى الجدباء إلى جنة وارفة الظلال أن يغنينى حنانك وحدبك عما افتقدته فى كنف أمى وأبى . . يا لهؤلاء الناس الطيبين لا أكاد أحس بفقدك أيتها السيدة الرحيمة سكينة . ! فعثمان أنسانى مرور الزمن . . لم أعد أفرق بين النهار والليل وطعام الإفطار والعشاء ! لقد اختلط الأمر على تماماً ، أحياناً أتخيلنى ما زلت فى الحارة أتأمل دكان سعد السباك . . وأنتظر فى لهفة فروغ الأسطى صالح من كى الأثواب التى أنوء بحملها ، إن لقاء فردين متحابين نعمة . . ما أحلاها . .

هل يدرك أبى وأمى ذلك أو أن اختيارهما لم يكن موفقاً . . لا يعقل أنهما تذوقا حلاوة العسل التى أرتشفها هذه الأيام ! لابد أن العسل فى زمنهما قد تحول إلى « مش » حامض . .

مالى وأنا فى أوج سعادتى تعاودنى ذكرى الطفولة اللعين ، وخاصة التى عشتها مع أبى وزوجته ؟

ما زالت هناك تجويفات فى جسمى سألنى عنها ولم أحر جواباً ! هل يعقل أن زوجة أبى كانت تمارس رياضة يومية تضربنى فيها بالعصا وفى كل مواطن جسمى الهزيل السقيم ؟

مع عثمان أنا . . بين أحضانه فى صدره الدافئ الحنون ، لكن الصور المقيتة . . اللحظات المؤلمة . . الدموع المخزونة تأبى إلا أن تتجمع فى وقت واحد وتنبثق من كل مسام نفسى لتفيض على بتعس ينذرنى بأن لا أمان لسعادة ربما

اختلقتها لنفسي اختلاقاً وماذا في يدي إلا أن أشيح بوجهي وذاكرتي ، علني أنسى وأغسل بدموعي كل مرارة الماضي وقساوته ، ومع ذلك هل نجح عثمان في أن ينسيني الكثير ؟

٥

ازدادت ماهية عثمان وكثرت أعماله الجانبية وتعددت . . تعددت مواهبه أيضاً ، ولابد أن بعضها تكتنفه الأسرار ، فلا أعرف إلا أننا نعيش عيشة طيبة تغنينا معاً عن أن أحترف حرفة أو أترك بيتي البسيط لأقضي ساعات أعمل فيها عند آخرين . . !

قالت لي جارتي لقد ازداد وزنك ، وتألقت عيناك ، واستدارت وجنتاك ، واتسعت الابتسامة على شفتيك ، لكنك مازلت سادرة في عزلتك . . أنت حقيقة عروس . . ولكن ألم يحن الوقت كي يدفعك الزواج – والحياة الجديدة في ذاتها – أن تكسري كل الأسوار وتقبلي على الحياة مادة ذراعيك تنهلين منها ؛ لتغدقي على عثمان كل دقائق أسرار المرأة ؟

ربما مرت أيام أو أسابيع أو أشهر . . ولكن زياراتي الودية للست سكينة قلت تدريجاً بحكم ابتعادي بعض الشيء عن الحي . . وبحكم انغماسي كلية في حياتي الجديدة التي يشاركني فيها عثمان الحبيب الزوج ، ولكن ماذا أقول عن المشكلة التي تواجهها كل امرأة ؟ ألم تحملي بعد يا بثينة ؟ لم لا تلجئين للمشعوذين أو المشايخ ؟ اسألي أهل المشورة إن أضعف الإيمان هو أن تقومي بزيارة الأضرحة

وأولياء الله الصالحين . . كم مر على منذ زواجى . . ؟ أيام . . أسابيع . . أم أشهر . . النتيجة . . هى القلق . . الخوف . . الانزواء . . كأن بى شيئاً . . كأننى مجذومة . . كأننى بؤرة للعدوى . . ونظرات عثمان الودية وأفراد أسرته وحبيباته السابقات وقوله لى مؤخراً :

– هيه . . هل بلغ حبنا أن نكتفى بعضنا ببعض فقط . . ألا تنوين أن تنيلينى فرحة العمر ؟ ابن أو ابنة من صلبى ؟ هل أقول له إن ذلك أمر ربى أو أسأله دونما خوف : ربما النقص فيك أنت ! كيف أواجهه بذلك وقد أخبرنى فى أمسية دافئة – لولا ستر الله لحملت حبيبتى السابقة منى سفاحاً . .لقد تخلصنا من الجنين فى الوقت المناسب . .

أكان يخدعنى أم يهددنى ؟ الأيام التى ستتكفل بالإجابة . . كم أود أن تردّ على غداً على أقصى تقدير . .

٦

عينا عثمان على القميص المفرود لكنهما تستريحان أحياناً حينما تلقيان نظرة على عنايات الشابة الفاتنة التى تقطن الدور الأول مع أبويها تتمخطر فى مشيتها ولا تنسى أن ترميه بنظرة توقد الدماء حارة فى شرايينه وعندما تصطدم عيناه ونافذة حجرة الست سكينة تنتابه غصة ويناجى نفسه . . كل شىء بعيد المنال نغلفه من خيالنا ومن حرماننا المتأجج برداء وردى سماوى ، وعندما نستحوذ عليه تصيبنا المرارة والفجيعة ، فقد كانت تصوراتنا وأوهامنا تفوق كل

الحقائق . . أين أنت الآن يا بثينة من قلبي ؟ أين حبي واشتياق ولهفتي على ضمك بين ذراعي ولهفتي الكبرى على إنجابي طفلاً من صلبي ؟ لماذا لم تتزوجها يا أسطى سعد ؟ أبناؤك من زوجتك الأولى تغنيك عن أن تطالبها بالأمومة ، ما كان أولاك مني بالزواج منها . . أتوق إليك يا عنايات بكل ما في من رغبة وحب ، وأحس هذه المرَّة أننا خلقنا من طينة واحدة ، فكآبة بثينة خلعت من نفسي كل اشتياق واستجابة !

الحصى من تحت قدميك يخشخش برنين كأنه اصطفاق الفضة والذهب ! ترى أتحملين لي في نفسك أو في قلبك بعضاً مما أكنه لك ؟ ترميني بنظرة تسلمني لأحلام نهازية تنقشع تماماً عندما أتوسد فراشي ليلاً وتقتنصني ذراعا بثينة المتشنجتان ! آه يا ناس من لسعة حرارة المكوة ! نظرة يا ست . .

٧

يبدو أن سكن بثينة الجديد يحتاج لعافية وصبر في السير ، فليست المسافة جديرة باللجوء للمواصلات كي تلتقي خديجة وزميلتها وصديقتها بثينة ، ربما كان ذلك أحد الأسباب التي منعت أو عطلت بثينة عن أن تقوم بواجبات رد الزيارة . .

ومع ذلك فخديجة في نفسها الكثير . . الاشتياق والاشفاق . . بثينة بانزوائها وحزنها المرتسم في قاع عينيها ثم خضوعها التام للست سكينة وتقبلها لمعظم الأوضاع سليمة كانت أو غير سليمة .

وخديجة تسلى نفسها بتذكر الأيام السالفة التى قضتها مع صديقتها وما يجب أن تواجهها به من أخبار صحيحة لا يعتورها شك . .

ها هو ذا المسكن ، وها هى ذى بثينة واقفة فى شباكها ، وما زالت صينية القلل تزين وتحرس عتبة النافذة . .

اللقاء حار والدمعة التى كادت أن تنسكب من عين بثينة باحت بالكثير . .

ومدت خديجة يدها تمسك بيد الزميلة التى لم تهن عشرتها :

افتقدناك كثيراً يا بثينة ! كيف تقضين وقتك ؟

– أعباء الزواج الجديدة . . الطهو وترتيب الشقة . . ألا يكفى هذا ؟

ثم ضحكت من قلب متعب ، ورنت بنظرها إلى الخلاء دون أن ترى شيئاً ولكن صوت بكاء طفل شدها إلى الداخل مرة أخرى . . هل تلقى خديجة بما فى جعبتها أو هناك من الوقت ما يتسع للتنوع فى طرق أحاديث شتى ربما تنصب فى النهاية إلى ما تريد قوله . .

حينئذ وعندما يكفهر الجو – وأرجو ألا يحدث – تحين اللحظة الحاسمة للاستئذان بالخروج ؛ فقد حان الوقت ليتفرغ كل واحد إلى مهامه الخاصة .

النظرة ملتاعة ، وافتقاد الأهل والأحباب يترك آثاره على اللفتات والحركات ، ولابد من طفل تعوض ما فات وتهون الحاضر وتشرق بالغد . . وما أحراك يا بثينة بخطوة تحدد مسارك هل تطلعها خديجة على الشائعات وبنات البلد لا يستطعن كتمان الأسرار ، ولكن رويداً أهى حقا أسرار أم شائعات أم حقيقة ؟ ولم لا توجه البوصلة وجهتها الطبيعية ، فيسأل أهل المشورة والصدق ». . ؟

– بثينة . . كيف حال عثمان معك ؟

لقد كان زواجكما زواج حب وقد فضلته على الآخرين . . لم أعد الحقيقة كما أعتقد . .

هذا هو سبب زيارتك المفاجئة لى يا خديجة ؟ لم تلومون على انعزالى ؟ ألست محقة ؟ من منكم ينشد لى الإخلاص ؟ ولم . . بعد أن تخلى عنى من هم السبب فى إبقائى حية حتى اليوم رغما عن إرادتى ! معك حق يا خديجة . . كل الحق . . إرضاء غريزة حب الاستطلاع – وربما التشفى لست موقنة تماماً – كل ذلك أو بعضه دفعك لتسيرى ما يقرب من الساعة موحية إلى أنك تفتقدينني كثيراً . . ربما ، فقد كنت الساعد الأيمن للست سكينة ، كما كنت أيضاً أخفف عنكن – زميلاتى – أعباء كثيرة والآن هاتى ما عندك لن أساعدك بالبوح بأية كلمة ، لقد حان الوقت لأقتص من الجميع . .

واتجهت نظرات بثينة إلى السقف ، ثم إلى ذراعيها المحليين بأساور ذهبية ترى ؟ هل التهمت خديجة الطعم ؟ إن لفتات بثينة توحى بالطمأنينة والثقة ولتتبين خديجة حقيقة الأمر لا مانع من أن تلقى بسهمها فى صورة اعتذار :

– لعن الله أولاد الحرام ! يتقولون على عثمان وعنايات وأنها عروسه المنتظرة . . ربما تنجب له . . هذه أمنياتهم أو ربما استنتاجاتهم ، ولكن بعد أن شاهدتك وتمعنت فى أثاث الشقة لا أجد مجالاً لهذا القول فأنت ست بيت وزوجة يتمناها أى رجل . . أليس كذلك ؟

لقد افتن الناس فى تعذيبى مهما أوهمت نفسى بعكس ذلك ! ولم تصلنى الشائعات يا رفيقة الزمن وزميلة العمل . . لكنى شاهدت بعينى رأسى ما أسلمنى

لمتاهات الغد شاهدتهما معاً . . عثمان وعنايات أعرف مقدماً ما ينتظرني ، وأحس بصدر عثمان البارد وأنفاسه اللاهثة الملولة . . لقد تلقفني الشارع . . من يدري ؟ متى يتلقفني في المرة القادمة . . ؟ شكراً يا خديجة ولكن لابد أن نتجرع الآلام حتى الثمالة ! مثال ذلك أن أتظاهر بالتماسك وبأن الشائعات لا أساس لها من الصحة ، بل هي فحيح حاسدين ليس إلا ، لم يعد لدى ما أقوله لك سوى :

– شرفتني يا خديجة . . لا أنسى أبداً أيامنا السعيدة معاً . . والفضل في ذلك لربي أولاً والست سكينة أخيراً أرجو أن أراك قريباً . .

وبصوت الباطن همست قائلة – دون شائعات . . !

٨

ما أسرع ما تمر الأيام . . متى لفظني أبي ؟ متى أدارت لي أمي ظهرها ؟ متى تلقفني الشارع ؟ متى احتضنتني الست سكينة ؟ متى غازلني هؤلاء الرجال ؟ متى اختارني عثمان زوجة له ؟ ثم أخيراً متى يتيقن تماماً أنه لا فائدة من استمرارنا معاً زوجين يظلهما سقف واحد ؟ والآن مطلقة أنا . . شريدة ما أوسعك أيها الشارع لا غنى لي عنك أبداً . . ساقاي تسوقاني إلى هناك . . إلى الحارة التي شهدت أهدأ فترات حياتي . . التي خلتها في يوم ما تمهيداً لدخولي الجنة . . . !

لقمة العيش كيف نحيا بدونها ؟ وهل هناك ملجأ سوى بيت الست سكينة ؟ مالهم هكذا واجمون ؟ الجيران . . أهل الحارة . . نظرات الرثاء تنبثق من

عيونهم . . والتنهدات تزداد . . ما زالت أصوات التنفس تلاحقنى تنفس عثمان الملول . . لقد انفض الكل من حولى لكننى أريد الحياة أولاً وأخيراً . .

انفتح الباب قبل أن تطرقه وتصل إليه بثينة . . ها هو ذا وجه خديجة الجامد يطل من الشراعة ثم يظهر قوامها كاملاً .

التحية مقبولة لكن النغم جاف :

– أهلاً بك يا بثينة . .

هل البيت بيتك يا خديجة حتى تخلعى على نفسك هذا الحق فى الاستقبال الفاتر ؟

– كيف حال الست سكينة ؟

واستكان الوجه البارد وضاعت الملامح المعبرة ولم يعد إلا قول مبتور :

– تفضلى يا بثينة استريحى فالمسافة التى قطعتها من بيتك إلى هنا كانت طويلة نعم يا خديجة . . تماماً كالمسافة التى قطعتها إلى بيتى لتستطلعى ، ثم ترمى بقنبلتك الزمنية قبل أن تتركى دارى ! ها نذى شهيدة بين الأحياء ! هاك جسدى ونفسى أسلمتهما طائعة كحقل تجارب لتزداد الطعنات وأموت مرة واحدة ! هل أعاود السؤال مرة أخرى ؟ لم لا ؟ مع تغيير طفيف فى التعبير :

– طمئنينى هل الست سكينة بخير ؟

كيف لم ألمح السواد فى رداء خديجة ؟ لعل السواد الذى سيشملنى طبع لدى مناعة فى رؤية الألوان على حقيقتها ! هل . . هل أعاود السؤال أو لعلنى أسبق الأحداث باستنتاجاتى المتشائمة ؟

لقد حان الوقت كى ترد خديجة على بثينة الضيفة الشهيدة الملتاعة الحزينة المطلقة حديثاً . .

– مرضت الست سكينة فى الأيام الأخيرة بضغط الدم العالى ثم غذائها غير السليم . . كما قال الأطباء . . كل ذلك عجل بفقدها . . كلنا لها . . لا مفر من الموت !

الموت . . ليته يحتضننى بين ذراعيه ففيه الخلاص والنهاية الأخيرة المريحة . . لماذا تنبثق دائماً الصورة اللعين ؟ . انزوائى فى ركن البيت والعصا تنهال على كل أجزاء جسدى الظاهر منها والباطن ! وزوجة أبى ذات الوجه المستدير الأحمر الذى يزداد احمراره مع كل ضربة من ضربات العصا التى كانت تشترى من حين إلى حين . . فجسدى اللين كان يكسرها . .

لابد من الضرب . . من التجريح . . من الألم وها هى ذى الست سكينة تسبقنى فى كل شىء فى مهارة حرفة الحياكة فى المبادرة بالانزواء الأخير للموت الرائع الذى أنشده بكل خلجات نفسى . . الآن ماذا أريد ؟ ماذا أنشد من وراء هذه الزيارة التى لم تخطر على بال أحد حتى أنا إلا فى اللحظات الأخيرة ؟ لعلها لقمة العيش ، نعم لابد أن نقتات قبل أن نموت . .

– وماذا ستصنعين يا خديجة أنت وباقى الزميلات ؟

ولمحت بثينة ظلال ضحكة لعلها عواء مستكين :

– مثلنا مثل سائر الناس . . البحث عن عمل فى مكان آخر بطبيعة الحال . . هل أسألك عن عثمان وعنايات ؟ لم لا ، مادام الشارع قد تلقفنى مرة أخرى . .

– هل . . هل لى مكان بينكن ؟

ونكست خديجة رأسها . . أدركت تماماً أنها لم تحمل لبثينة إلا الأنباء المروعة . . ترى هل هناك مكان جديد لجرح آخر . . ؟

سنلتحق بعمل فى مصنع . . شروطه الإلمام بالكتابة والقراءة . .

– كيف أنسى موقف زوج أمى وزوجة أبى ؟ لأول مرة يتحدان فى عدم لقينى أى مبادئ من القراءة والكتابة وإلا فكيف تسير الأمور فى البيت دون معاونة الشغالة أو العبدة . . غير الأجيرة . . بثينة . . ؟

لقد ضاع كل شىء . . كل شىء . . ما فى ذلك شك . .

٩

ها هى ذى الأيام . . الأشهر . . تمر . . وما برحت آثار القديم تعاودنى ثم تعادينى . . قلبى أرشدنى . . أن أسير فى هذه الحارة . . الحارة التى كانت تضمنى بين جناحيها وتستأثر بى . . تصوننى . . تدخرنى (لينالنى) – دون الرجال أجمعين – عثمان . . صبى المكوجى صاحب أكثر من صنعة آخرها حرفة المكوة ومع ذلك سألجأ – مضطرة كارهة – إلى الأسطى صالح كى يبحث لى عن عمل . . ومن لى سواه ؟ كلهم أصحاب مطامع . . وهل أنسى الأسطى (سعداً) وغيره . . والآن قد تحولت إلى سلعة غير ذات بريق . . من أدرانى عن التشهير الذى يروجه عثمان والذى عن طريقه يبرر انفصاله عنى بالطلاق فيتحول إلى مجنى عليه ؟ . اختارته – مشفقة – عنايات لتحيل حياته الشقية إلى جنة وارفة الظلال . . لابد أن نعيش . . نصبر . . نكافح ونصمد . . كذلك كانت

تقول الست سكينة لنا جميعًا نحن – بناتها المساعدات – أين أنت الآن يا ست سكينة ؟ هل صانك الكفاح والصمود والصبر عما أصابك ؟

اتركيني يا ذكريات ، دعيني أتنفس هواء جديداً لتتولد لدى طاقة أستطيع عن طريقها أن أتحمل المزيد من المصائب . . !

ها هي ذي الأثواب المكورة تستحيل في دقائق إلى أخرى مفرودة منسقة . . بجهد طفيف بحرارة لا تكاد تلسع كم أنا محتاجة إليها ! . بكلمات حنون لا تصل حرارتها إلى حد الإحراق ولا بفتورها وبرودتها إلى العدم :

– سلام عليكم . . يا أسطى صالح لعلك بخير . .

وتطلع الوجه المغضن الطيب إلى بثينة الشابة الحزينة المنكسرة : – بخير يا ابنتي كم افتقدناك كلنا . .

أخذ يدها بين يديه وترك الثوب يتنفس الصعداء وبخار حرارة المكوة يتصاعد لابد أن يكون الحديث هكذا :

– ما زلت الوردة المتفتحة التي سعدت بها الحارة زماناً طويلاً لقد جئتها وأنت هكذا ترتفعين عن ركبتي قليلاً جدًّا . . أهلاً بك يا بثينة كم أنا سعيد برؤيتك هذا اليوم ! .

هل سيستمر شعورك بالسعادة لو أدركت أنني في أشد الاحتياج لمعونتك . . ؟ أفلن يضيق بي صدرك لو ناشدتك المساعدة . . ؟ الحرفة التي يمتهنها نفسها مطلق عثمان . . أن تلحقني بعمل كشغالة مثلاً ؛ فأنا لا أعرف الكتابة والقراءة . . يارب ارض عني . . وهيئ لي من أمري رشداً :

– ترى يا أسطى صالح ؟ هل تبخل على لو رجوتك أن تبحث لي عن

عمل ؟ أى عمل ولكن بما يرضى الله . .

لم يحوله الموقف عن الالتفات إلى مهنته ، فسرعان ما علق الثوب فى الشماعة فى طريقه إلى الزبونة :

– على عينى ورأسى يا بثينة . . يومان على الأكثر . . وتتسلمين عملك . .

وأين أبيت ؟ وكيف أسكت صرخات أمعائى ؟ . هل تدرك ذلك كله ؟ السيدة الطيبة تتوسد التراب أما الأحياء من لفظونى لا يعرفون مكانى وإن عرفوا تنكروا لى . . كل ذلك بجزئياته هل تدركه وتعيه يا أسطى صالح ؟

١٠

تفحصت ربة البيت الشابة وسط الصالة فى استحياء . . جالت عيناها بلا ضابط أو نظام فى كل منحنيات جسمها وأطرافها وأهمها شعور بالراحة ممزوج بالدهشة ، وتذكرت أقوالاً مأثورة وملاحظات قيلت وتقال . . الأيام لا تدوم على حال وربما هذه الفتاة التى تسمت باسم جمالات ربما يكون اسما مستعاراً قال الأسطى صالح الكواء : إنه لا داعى للاطلاع على تفاصيل دقائق حياتها يكفى تزكيتى لها وعشرتها معنا سنوات ليست بالقصيرة ، والشىء المؤكد أن لا عقبات تعترض حياتها ، كل ما فى الأمر أن الأجر المجزى كفيل بإزالة الكثير من العقد والمعوقات .

رجاء واحد التمسه الأسطى صالح من السيدة الوقور أن تجاهد فى ألا تعرف واحداً ، أو واحدة من الشخصيات التى عاشرتها فى حيها أنها امتهنت عمل الشغالة فى البيوت ، وسيساعد على ذلك انتقالها نهائياً من مسكنها القديم . .

ما الفارق بين جمالات أو بثينة أو أى اسم من الأسماء ؟ المهم أن تقتات ، أما الارتباط برجل أو بأسرة فشىء بعيد تماماً عن ذهنها على الأقل فى الوقت الحاضر . . لكن الشىء الغريب . . المحير أن ذكرياتها مع زوجة أبيها لا تريد أبداً أن تبارح خيالها . . هناك مواقف كثيرة متعددة شهدت وأحست فيها آلاماً مروعة . . لكن كل ذلك يهون عدا انزوائها فى الركن والعصا تنهال عليها تمزقها . !

وهى بعد أن تؤدى عملها فى هذا البيت – المعقول نسبيًّا – تئوب إلى حجرتها القابعة تحت السلم . . السلم الذى يلازمها فى كل أطوار حياتها . . بعد أن أمضت فترة ليست بالقصيرة . . أدركت أن لابد لها من رفيق . . لا ، لن تحب أحداً . . لم يعد يتسع قلبها لأى كائن حتى ربة البيت من تعمل عندها لا تحمل لها فى نفسها شيئاً لا الحب أو الكره أو الحقد ، لم يعد قلبها يحس شيئاً ، يبدو أن قلبها قد تحول إلى كرة . . أو أى جماد من أى نوع ، ولكن ذلك الخواء الغريب الذى يشملها . . شعورها الجارف المفاجئ بأنها تريد أن تشاهد أحداً تعامله . . بأى شكل ، وبأى صورة أخذ يلح عليها إلحاحًا شديداً مروعاً . .

ترى ما العمل أو الحل ؟ أخذت الفكرة تلح عليها وتطرق أبواب تفكيرها حتى غلبها النوم . .

١١

لقد اكتملت الصورة أو كادت . . القلة شامخة فى صينيتها والليمون يرتع فى الماء المرشح برغم أن الليمونة بقرش صاغ ، وظلّ ابتسامة تلوح على شفتى بثينة

الشهيرة بجمالات .

راقبها الجيران فى الآونة الأخيرة . . ربما ازداد عجبهم لمجيء (طفلة) فى احتياج إلى رعاية يطول انزواؤها فى الحجرة المستترة تحت السلم ، سأل بعضهم جمالات :

– من هذه (الطفلة) الحزينة ؟ ولماذا لم ترها معك فى أول الأمر ؟

أجابتهم بثينة وهدوء غير مستريح ينضح من بين عينيها ولفظها باطنها أنْ لاَ بد أن ستأتى اللحظة التى تستجوبين فيها فهل تملكين إجابة ؟ بالطبع أملك . .

– ابنتى من مطلق تركتها عند أبيها وأسرته لأستطيع الحصول على عمل وبعد أن وفقت لم أجد بأساً فى أن أحوطها برعايتى . .

وقالت شمطاء ثرثارة :

– صراخها يعلو كثيراً وتقلقنا حتى فى يقظتنا . .

وتلهث أنفاس بثينة وتقول بعصبية تحاول إخفاءها :

– لا تنسى أننى أعمل نهاراً وبيت الشغل يرفض مصاحبتى لها . .

لكن العجوز لا تيئس وتفحمها قائلة :

– إن صراخها يعلو فى وجودك يا جمالات . .

– دعونا فى حالنا لقد قاسيت كثيراً حتى حصلت على هذه الحجرة التى لا يعلم إلا الله كيف أتحملها بضع ساعات فى الليل ، أترونني أتجسس عليكم ؟

ليتكم تهتمون بى وقت الاحتياج ، وأرجو ألا تلجئنى الظروف لطلب المعونة من أى واحد أو واحدة منكن . .

* * *

١٢

أكثر من عينين ترمقان نافذة الحجرة المنزوية تحت السلم وجالات حينما تطل منها مستطلعة ومملولة تصوب إليها العيون .

نجلاء (الطفلة) الحزينة والتى تردد بثينة دائماً عنها ، (طفلتى) من مطلق – لا تكاد تراها العيون عمرها لا يتيح لها أن تلتحق بمدرسة لكنه بالضرورة يدفعها كى تختلط بأقرانها من الأطفال وهو ما لم يحدث . . الجيران يثرثرون . . بعضهم واجه – بثينة أو جالات – وبعضهم آثر الثرثرة فى غيابها وبين ذاك كله وفى متاهات أفكار جالات انبثقت الرؤية التى لا تنمحى أبداً من مخيلتها . . انزواؤها فى الركن والعصا تنهال على كل منحنيات جسمها ، لكنها الآن وفى تلك اللحظة تسمع الصوت عاليا صارخاً : هل أعاد التاريخ نفسه أو أن الصوت غير صادر منها . . ؟

نجلاء تتسع عيناها وينفتح فمها وترفع يديها تكونان معا ستاراً صغيراً متشبثا بإخفاء وجهها من صفعات جالات التى تنهال عليها من كل الاتجاهات ، اهتزت صينية القلة ، وارتجفت المقاعد القديمة ، وصرخ الأثاث العتيق ، وانهالت الأصوات مندفعة كالتيار الصاخب الكاسح فى أذنى جالات . .

ولم تمض ثوان إلا والطرقات تنهال على باب الحجرة الحزين غير المتماسك سرعان ما تهاوى كل شىء . . انكسر الباب ، وشاهد أفراد من الجيران « الطفلة » نجلاء تقعى على ركبتيها ولا يصدر منها صوت غير لهاث متتابع وصدر ثوبها يرتجف هلعاً وإنهاكاً . . حملقت عينا جالات . . كادتا أن تحترقا

الحوائط وتتعدى كل المنظورات ، انحسر الزمن واختلط الليل بالنهار وانطوت صفحات ، فلم تعد تذكر الست سكينة ورفيقاتها فى العمل والحارة والكواء والسمكرى والقصاب وأصحاب الجراجات وصبية العاملين . . الرؤية الوحيدة الباقية هى التى تصاحبها دائماً . . زوجة أبيها ممسكة بالعصا والبكاء والصراخ والعويل منها وهى (طفلة) خرج صوتها ملتاثاً عالياً :

– كانت تضربنى هكذا ، كانت تدمى جسدى كأننى شوال ممتلئ بكل القاذورات . .

دعونى أتم ما بدأته زوجة أبى . . دعونى . . دعونى . . إنى أضرب ابنتى . . أؤدبها ما لكم ومالى ؟ دعونى فى حالى . .

تكالب عليها الأفراد . . أحاطوها من كل صوب . . ولم تملك شيئاً إلا أن تصمت وتغمض عينيها عن كل شىء حتى اختلطت كل الصور ولم تبق إلا الصورة الأزلية التى تلازمها فى صحوها ونومها . .

١٣

كثر همس الجيران وانحسرت أمواج الهمس عن أن جمالات – الساكنة الجديدة – تنهال ضرباً بالصفعات حيناً وبالعصا أحياناً أخرى على (طفلة) لم يروها معها إلا مؤخراً . عندما كانوا يسألونها عن سبب بكاء وصراخ (الطفلة) نجلاء كانت تجيبهم بأنها تبكى فى غيابها لافتقادها حنان الأم ! وأن خروجها للعمل فى البيوت كشغالة يستلزم منها ألا تصحبها معها حتى لا تكون عائقا يحول بينها وبين لقمة العيش . . أما الإجابة المعقولة ، الإجابة المنطقية

فهى أن بكاء وصراخ الطفلة نجلاء لا يكثر إلا فى وجود جمالات معها . .

وهنا يتخذ الأمر صورة غير طبيعية وحينما بلغت ذروتها وكاد صراخ (الطفلة) ينبئ عن أنها تصارع الحياة والموت . . اندفع الناس بكل طوائفهم يكسرون الباب ليشاهدوا نجلاء شبه منسحقة وجمالات فى حالة هياج يهذبه الذهول أحياناً أما العينان الفاحصتان اللتان كانتا ترمقان جمالات لعدة أيام فكانتا للضابط محسن الذى أخذ يراقبها بعد أن نشرت صورة (الطفلة) نجلاء فى عداد المفقودات ، أخذ الضابط محسن جمالات من يدها (كطفلة) خجلة حزينة . . أخذت ترمقه بعينين نصف مغلقتين ولم تخرج من بين شفتيها سوى كلمة واحدة :

— هل رجعت ثانية يا زوج أمى . . ؟

١٤

أخذ الشرطة يراقبون الجمع المحتشد من الناس الذين صاحبوا جمالات والضابط وقال أحدهم :

— التحقيق سيبدأ الآن فى القسم ، كل واحد منكم ينصرف إلى بيته . . الحقيقة ستنجلى آجلاً أو عاجلاً . .

أحاط الضابط محسن (الطفلة) نجلاء بذراعه واتخذ مجلسه فى قسم الحى . . ظهرت امرأة شابة تلوح على قسماتها إطلالة حزن سحيق . . حملقت عيناها غير مصدقة وهمست بصوت مبحوح :

— ابنتى (طفلتى) .

واندفعت بكل قوتها صوب (الطفلة) الباكية واحتضنتها بصدر كأنه صلصال انطبعت فيه ملامح جسد (الطفلة) واغرورقت عيناها بالدموع وفى أتون اللحظة الحارقة جاءت كلمات الضابط محسن كالإشراقة :

– أهى ابنتك حقاً ؟

واختلط البكاء بالهمهمة بفرحة اللقاء غير المرتقب :

– نعم . . يا سيدى . . هى . . هى . . ضناى . . ابنتى . . ! والتفت محسن صوب جمالات :

– ما قولك ؟ كيف اختطفتها . . ؟ أجيبى

كيف أجيب ؟ من هذه (الطفلة) ؟ المدعوة نجلاء هل اسمها الحقيقى أو أنه من اختلاقى ؟

أليست هى أنا التى كنت أضرب بلا رحمة أو جريرة ؟ إنى أواصل ما فات من طفولتى . . الضرب المبرح الضرب الموجع المؤلم وأبى ضعيف منزو والقلل الفخارية تتكسر كل عدة أيام . . والعصى تختلف أطوالها وغلظها . . ماذا فعلت ؟ أهى أنا أم أنها ابنتى ؟ كيف تكون ابنتى ؟ وعثمان طلقنى لأننى عقيم . . ؟

من هؤلاء الناس ؟ لماذا لا يدعوننى فى حالى ولماذا لا أجدهم إلا عندما تتأزم الأمور ؟ لم لم يمدوا لى أيادى المساعدة عندما نهشنى الجوع وحينما طاردنى زوج أمى وحينما لفظنى عثمان إلى الطريق . . وكافأنى القدر بموت الست سكينة صاحبة القلب الطيب الوحيد ؟ أين الآن أمى وأين أبى ؟ لماذا يحملق لى الضابط بعينين متهمتين ؟ ماذا فعلت ؟ وخرج صوت جمالات ولم تحس هل هو باطنها

أو صوتها الواعى ؟ فقد سمعها أكثر من شخص :

– اسمى جمالات وأنا بثينة . . عثرت بالصدفة على (طفلتى) فى زحمة أفراد يعلنون عن فيلم يعرض فى سينما الحى ، ذكرنى كل ذلك مولداً يقام فى قريتنا . . لم أختطفها . . لقد حادثتها وكأننى أحادث نفسى . . لم تكن (الطفلة) غريبة عنى . . كانت بثينة . . كنت أنا (الطفلة) !

وصرخت الأم الحقيقية الملتاعة :

– مجنونة هذه المرأة . . احبسوها خذوها بعيداً عن ابنتى ! هل أحست بلوعتى على فقدان ابنتى حبيبتى ؟ ألم ترزق أطفالاً ؟ كيف طاوعها قلبها المتحجر على أن تقدم على تلك الفعلة الشنعاء ؟

والتصق صدر الأم الحقيقية بجسم (الطفلة) الهزيل وهمس الضابط بحزن :

– ابنة من أمين . . لله فى خلقه شئون . . !

١٥

هل هناك أمل فى شفاء بثينة التى انتحلت لنفسها اسم جمالات وهل يعفيها ذلك من مسئولية إدانتها باختطاف (طفلة) ؟ الأيام كفيلة بوضع الأمور فى نصابها . . ثرثر الجيران بذلك كثيراً ، لكن الموقف حسم بوضع لافتة على وجهة الحجرة المنزوية فى حزن تحت بئر السلم مكتوب عليها « للإيجار ! »

شبابى الذى عاد

جرس التليفون يدق ، كان الرنين متقطعا ، سادرة أنا فى أحلامى كمن تبتلعه أمواج بحر لاحدود له ، فلا تدع له فرصة للتفكير بحيث يتحول جهاز عقله إلى عقارب ساعة قديمة لايبقى منها إلا صورة ، أو لعلها تمثل سطحاً ميتاً لا ينبئ عن شيء برمته .

مازلت مستغرقة فى أحلامى ، لا موضوع بعينه يستغرقنى التفكير فيه ، جرس التليفون يدق ، ترى لماذا ؟ أهناك شيء يستدعى اللهاث وراء الأشياء ؟ دقات قلبى تدق . . تنبئ أننى أعيش ، مازلت أتنفس ، صدرى يعلو ويهبط ! أحياناً تستكين أجهزة الأعضاء ، كل شيء ينام . . ينام . . إلا شيئاً واحداً ، إنه عقلى الذى يعمل باستمرار . . تلافيف المخ ليتنى أمسك بها ، عندما أرفع ذراعى ؛ لتهيأ كى أحاول لمس جذور شعرى ، يقولون باللهجة الدارجة :

أتهرشين ؟ لعلك تفكرين . . ليتهم يعلمون . . ليتهم يحسون . . عاهدت نفسى فى مرة أن أكف عن التفكير ، ربما للحظات قد تكون تجربة أو تمريناً من تمرينات (اليوجا الهندية) على أية حال – شدتنى التجربة فقمت بها من باب الفضول ومغامرة مدى النجاح أو الفشل ، وقدرتى على اجتيازها بالنجاح أو بالفشل أيضاً . .

صعقت فقد اكتشفت أننى أعدّ (واحدْ . . اثنينْ . . ثلاثةْ) كيف أوقف هذا الجهاز عن التفكير ؟ تناولت حبة مهدئة مساء بعد احتساء كوب لبن دافئ وبعد استحمام ، فماذا حدث ؟ حلمت ! استغرقنى الحلم شاهدت وكدت ألمس كل شىء تراءى أمامى ! اكتشفت أن الحلم ملون . .

تحققت تماماً من اللون الأحمر ، والأسود والأخضر . .

لكن ما أذهلنى حقيقة أننى كنت ومازلت أفكر ، همد الجسد ، سكنت معظم أعضائه ، أما عقلى وجهازه النشيط فمازال يعمل . . كيف تبعث الروح فى الجسد للبيت ؟ وماأوتيت من العلم إلا قليلاً . .

جرس التليفون عاد يدق . . غريبة مع أزمة التليفونات ! لعله وهم وتخيل ، لعلنى أحلم . . لكن كيف أحلم وجسدى يتبض . . لا بد أننى أحيا ، وحيث إننى أحيا فلا بد أننى أسمع ، لم لا أمد يدى لأمسك بسماعة التليفون ؟ يجب أن أصحو وأتأهب . . الحياة تنادينى . . يقولون إن أعصابى من نوع غريب ؛ فتصرفى هذا يكشف عن أعصاب غير عادية أتمتع بها ، فكيف أتحمل الاستماع إلى دقات جرس متواصلة ملحة وأنا ساكنة ؟ لكنهم لا يعرفون أن خيطاً واهياً يفصل بين اليقظة والمنام . . هل حانت اللحظة لأمسك بسماعة التليفون ؟

لم لا ؟ صوت نسائى مألوف يردد فى تردد ؟ يردد فى خوف وتلعثم : ابنتك بخير . . ستجرى لها عملية جراحية . . لا تنزعجى هى بين أيادٍ رحيمة تعالى بسرعة . . إن . . إن . . .

ما الذى استوعبته أذنى ؟ ماالذى أوقفنى من لحظات عن أن أمسك بسماعة التليفون ؟ ماهذا الذى تتلقفه كفاى ؟ دموع سخينة أحمد الله ، أحمده على أن وهب لى مفاتيح أحزانى . . خزانات دموعى فاضت لتروى . ماذا أقول ؟ هل أدعو الله ؟ الدعوات كثيرة ، والدعاء يملأ السموات والأرض كل يسبح بحمده النبات . . الطير . . الإنسان . لست أعى تماماً متى وسدت ابنى ، لا ألم بالتفاصيل الدقيقة . . الشىء المؤكد أنه معى دائماً برغم أننى لا أراه ! عرفت الآن لماذا لايكف عقلى عن التفكير . . التفكير فى لا شىء . وفى كل شىء !

الحرب ابتلعت فى جوفها « الحيتانى » دماء الشهداء ، لم يبق لى فى دنياى من الأبناء سواها . . سوى حبيبتى ابنتى . . يقولون إنك هى : وهى تشدك إلى ماضيك بكل حلاوته وشبابه ونضارته . . حافظى عليها . . على ذكرى الشباب كى لا يزول ، لعلها خدعة أو وهم : أن نتشبث بالماضى بحجة واهية . . الوفاء للذكريات . . وما جدواها ؟ مادام الماضى لا يعود ، حلو الماضى قد يبعث على الحسرة ، فما أدرانا أن السعادة تتكرر ، ولسنا نطمع فى أن تدوم . ؟

لكن لماذا يحملق هذا الكائن فى وجهى ، ويتفرس فى ملامحى كأنه يرانى لأول مرة ؟ لماذا لايهرول إلى التليفون ، مثلما فعلت ؟ إنه زوجى ووالد ابنتى . . ومع كل فقد نطق كل منا فى نفس واحد . قال : مالك متصلبة هكذا كتمثال رخامى ؟

فقلت : ولماذا لاترد بدورك على التليفون ورنين جرسه لا ينقطع ؟

قال : أعُدْت مرة أخرى لهذيانك ؟ إنى جالس إلى جانب التليفون الذى تحول إلى آلة صماء قلت بدهشة حقيقية : أتصدقنى القول ؟

قال قطعاً ، وماذا يدعونى لخداعك ؟

حقيقة ما الدافع كى لانقول الصدق ؟ لكنى لم أره إلا الآن كيف يغرقنى التفكير إلى هذا الحد ؟ أكاد أجزم بأن حديثاً دار بينى وبين واحدة لا أعرفها برغم أن عقلى لايكف عن التفكير فى لا شىء وفى كل شىء إلا أن هذا اللاشىء وكل شىء مطعون فيه . . مشكوك فى أمره ، سأعاود النظر إلى هذا الكائن ؟

زوجى والد ابنتى وابنى الذى رحل عنا لماذا أدعو زوجى باسم الكائن ؟ ألأنه كائن فعلاً ، أم لأن هناك شيئاً خفيًّا فى بواطن الأمور ؟ لقد تحول تفكيرى الذى لا ينقطع عن كل شىء . . إلى التحقق من كنه التفكير نفسه ، يالها من مأساة بل يالها من ملهاة !

لقد نسيت فى غمار تفكيرى المتواصل أن أعاود النظر إلى هذا الكائن عفوًا . . إلى زوجى . . مرة أخرى . . نظرة متفحصة خالية تماماً من الشرود أو من معاودة التفكير فى أمر غير ذى أهمية . .

الصدق واضح فى تعبيرات وجهه ، لكنى اكتشفت أيضاً شيئاً جديداً ، إنه يتأملنى بدوره كإنسان يبحث عن نفسه من جديد !

هل ستتبادل مباراة فى الفحص والبحث عن المجهول ؟ من منا له السبق فى الوصول إلى الحقيقة ؟ وهل الحقيقة غير مشكوك فيها حتى إننا سنكون على بينة تماماً من أمرها ؟ أيها العقل الحائر المحير ، دعنى ، اتركنى أسبل عينىّ لأتوه فى

عالم من صنعى أبعد فيه عن خيالاتى . . كل منغصاتى ؛ لألتفت إلى حواسى ، وأنهل من متع الحياة ، أضنانى التفكير ، وانعكس ذلك على ملامحى ، وإلا فما معنى أن يداوم زوجى فى تأملى كأننى أمثل لديه نمطاً غير مألوف من البشر !

رغماً عنى ، وبمحاولات شبه مستميتة أخرج بها زوايا الحزن المديبة كى لا تغوص أكثر فى نتوءات مخى ، كى أطمس صورة حبيبى الذى رحل عنا بلا تمهيد ، أو مرض مستعصٍ أو غير مستعص ! تتركز الرؤية فى ملامح ابنتى أو شبابى الذى ولى ، شبه مقارنة بين حس الحياة وذكريات مرت عليها نسمات الموت اللافحة ، ماجدوى التفكير فيما فات ؟ لم يبق أمامى إلا الحس الذى أعمل على تغذيته وتنشيطه ، ربى امنحنى القدرة على التركيز ، دقات جرس التليفون مازال صداها يعبث فى تلافيف مخى ، وهذا الكائن الماثل أمامى يصر على أننى أتوهم ، وبرغم يقينى من القدرة على السمع والاستيعاب فإننى أيضاً ألم تماماً بمدى صدق زوجى الذى مابرح يتأمل طلعتى ، كان لابد من الحسم ، الحسم بين الحياة والموت ، وأن أختار أحدهما تماماً كمن يزعم أنه فى مكانين فى وقت واحد !

جرس التليفون دق ، أول دقة تبعتها فترة صمت ، ثم تلاحقت الدقات ، أول مرة يشيح زوجى نظره عنى ، ويرفع ذراعه ليمسك بيده سماعة التليفون يصغى ، ثم يحملق ، وبعد ثوان يضع سماعة التليفون مرة أخرى ، ثم يهمس بصوت واه ، أتأمله من جديد ، كائن بشرى حطت عليه هموم الدنيا بأثقالها أسأله فى رجفة :

– ماذا حدث ؟

– سمعت هذه الكلمات . . ابنتك بخير . . ستجرى لها عملية جراجية ، لا تنزعجى . . هى بين أيادٍ رحيمة . . تعالى بسرعة . . إن . . إن صرخت أعماق – تماماً . . هذا ماحدث منذ لحظات . . بل . . بل لعلنى سمعت هذه الأقوال منذ فترة بعيدة انتقلت من تفكيرى القدرة على استيعاب الزمن . . المهم . . كيف نتصرف ؟

– هل هناك تصرف غير الذهاب إلى ابنتنا للتحقق مما سمعناه ، سمعناه ؟ لأول مرة تتضح الحقائق ، لأول مرة يرحل الموت عنا بذكرياته التى سبقته ولحقت به ، شبابى الذى ولى يبدأ فى العودة قد تختل موازين المنطق ؟ لكنها الحياة . . كل ماأدريه بعد ذلك أن الرؤية تركزت فى تأمل ابنتى التى أجريت لها عملية جراحة ناجحة .

الصورة المتمثلة أمامى الآن . . وجهى الشاب وقد أشرق بنضارة غير مألوفة ، لقد انزاح عن كاهلى عبء الموت ، وفرضت الحياة نفسها على من جديد . .

بقى سؤال حائر مازال صداه يدق على مخيلتى : كيف ارتدى المستقبل رداء الحاضر وعرفت خبايا الغد ؟ لعله وهم ، بل هو وهم حقاً ، فلا يعلم الغيب إلا الله .

تابوت الحياة

رنت إليها . . لا . . ليس بحب أو شغف أو تأمل لكن . . لكن بماذا ؟ بقلق . . توتر . . خوف . . لهفة . . لعل ذلك كله فى بوتقة واحدة وانفعال جارف ومكثف . ابنة (وحيدة) قد يجوز لها التدليل والإيثار . . لكن أن يتعقبها قلبى بهذه الخفة وبذاك الإصرار . . فأمر طال مداه ، وأصبحت المواظبة عليه فوق طاقة البشر . ابنتى ستموت . . شىء طبيعى . . كلنا إلى فناء ولكل مشوار حدود قد يطول أو يقصر والعلم عند الله .

هذا الحلم . . لا . . ليس حلماً . . لعله كابوس . . يتراءى لى منذ ولادتها . . قد تضاف إليه فقرة أو يحذف منه مشهد لكنه هو . . هو لا يتغير . . ابنتى الجميلة ذات الوجه الصبوح والقوام الممشوق ترقد فى صندوق خشبى داكن ومشرب بحمرة الورود المتفتحة ، والتعسة تنمو داخل الصندوق . . كلما

مر عام أو بضعة أعوام ، لقد تعلمت مثلى كسائر الناس ، شهادة لم تصل إلى الشهادات العليا . . واكتفاء بتكوين أسرة . . وزوجى الغائب دائماً فى بلاد عربية غريبة وكأننى وابنتى فردان فى قالب إذا أفرغ تحول الفردان إلى كائن واحد هو صورة ابنتى وروحى أنا . . أم فى الأربعين . . ومع كل فقد تخلقت ثغرات فى نفسى وجسمى قال عقلى : املئيها ؛ وقال باطنى : بارتواء الأحلام ولابد من مفسر لكل هذه المغاليق .

والتفتت السيدة (ل) حواليها تأملتهن قريناتها من النساء يملأن فراغهن . . بعضهن بالانتماء إلى الجمعيات الخيرية أو ماشابهها وهى . . كيف تقضى أوقات فراغها ليلاً . . مع الأحلام . . ونهاراً مع الأحلام ؟ أيمكن الإنسان السوى أن يحلم وهو يقظان ، وعيناه مفتوحتان وقلبه مغلق وحواسه مخدرة ؟ لابد من مفسر ، وأين ومن يكون ؟ وهى الابنة الرائعة المتفوقة دائماً فى دراستها ، المرحة فى كل تصرفاتها وحركاتها . . ماذا بيدى كى أنتشلها من أحلام اليقظة والمنام وأنصبها ملكة على كون . . أحلامه سلام وأهدافه سلام وليله سلام ؟

. . فى أحلامى أراها شاحبة باصفرار يشوبه دخان صاف صفاء السماء وعيناها مفتوحتان حلوتان لا ترميان إلى شئ . . وهاهى ذى تستعد لتجهيز حقيبتها . . فغداً ستقوم مع صديقاتها وزملائها برحلة . . والبشر يملأ محياها ، والبهجة تطل من كل زوايا نفسها وروحها . .

دربت نفسى على ألا أبوح بما يثقلها لغيرى كصديقات أو قريبات . . وزوجى الغائب دائماً أعفانى من الشكوى والاستفسار ، ولم يبق إلا قلب عامر بمشاعر مكثفة ناءت وفاضت وليس أمامى إلا عقل متوسط الذكاء ، ولمحتنى

ابنتى الحبيبة وضحكت من قلب خلى :

دائماً ساهمة ياماما ، المشوار طويل للتفكير فى زواجى هاها . . ورفعت إصبعها محذرة . . سأعفيك وأبى من طرق هذا الموضوع ؛ فالزواج يخص اثنين لاثالث لهما إلا . . المباركة . . من بعيد . . أتسمعين من بعيد ؟ هاها ! كم يباركك قلبى ياغالية ! . كم أتمنى لك دوام الصحة واستقرار الفكر ! الجميع يحسدوننى لأننى أمك . . وفى خضم أفكارها . . هجس هاجس فى نفسها . . حياتى . . ابنتى . . احترسى من الأتوبيس الذى ستسافرون به . . تلفتى يميناً ويساراً واختارى مقعدك فى الجزء الأمامى ، وليكن بعيداً عن الشمس ، ولا تنسى الشطائر . . و . . هناك البحر . . اكتفى بالتطلع إليه هه ؟ لاداعى فى هذه السويعات القصار أن تصرى على السباحة . كلنا يعلم أنك من هواتها وأنك تجيدينها ولم ننس بعد بطولاتك التى أحرزتها . .

وإذا لم تستطيعى كبح جماح رغبتك فى السباحة . . فحذار أن تتناولى طعامك وتصرى على الاستحمام أتسمعيننى يا ابنتى . . أستحلفك بالله وبكل عزيز غال عليك أن تعملى بنصائحى . . وتلفتت السيدة (ل) بحذر وخوف حواليها ولم تجد لابنتها أثراً !

ليت السيدة (ل) تدرك أن الابنة (الوحيدة) التعسة بما جبلت عليه من خصال مرحة وحب فى الحياة لاتلقى بالاً لوساوس أمها وتوترها الدائم ؛ فربما يدفعها ذلك لأن تأخذ من ساعاتها هى السيدة (ل) قسطاً ضئيلاً من راحة نفسية وهدوء بال .

وأشرف ميعاد ميلاد الابنة الجميلة وليلتها – وكمعظم الأمسيات – حلمت

السيدة ل بابنتها وقد ازداد نضجها وألقت إليها بتحية وابتسامة وسألتها الأم : لماذا ترقدين فى ذلك الصندوق الخشبى ؟ . ورنت إليها الابنة وقالت ضاحكة . . كل ذلك من صنعك أنت ! ألا تتذكرين ؟ وأغمضت عينها وصحت الأم على دقات قلبها ، وخيل إليها أن زلزالاً أدرك موقعها وأن ساعتها قد حانت ، فقامت من نومتها كالملتاثة تبحث عن ابنتها ، ولما سمعتها المربية العجوز هدأت من روعها وقالت : ألم تنسى أنها يجب أن تستعد لحفل عيد ميلادها ؟ لقد خرجت لصالون الحلاقة لعلك نسيت ياسيدتى !

كيف تنسين ؟ ولماذا تنسين ؟ هكذا هى . . فى أحلى المناسبات لايتخلى عنها هذا الحلم اللعين . . قد يتفوه البعض . مادمت تشاهدينه آلاف المرات . . قد يخفف ذلك من وقعه على نفسك التى اعتادت مفهومه حتى لو كان مؤلماً ومحذراً .

. . يجب أن تصارع نفسها من أجل ابنتها ولو أنها هى (السيدة ل) منطوية ومرهفة الإحساس ، إلا أن الميعاد حان لتكشف مابنفسها . . قد لايكون فى مقدور البعض أن يشفيها تماماً مما بها ، لكنه على أسوأ الفروض سيعاون على تخفيف حدة آلامها . . وحفزتها دفعة قوية لم تدر شيئاً عن مصدرها ، لكنها تخففت كثيراً مما بها ، وانطلقت من داخلها ابتسامة أضاءت محياها وتحركت بسرعة وحماس ، فأشارت إلى المربية أن تعاونها فى تعليق الزينات والأوراق الملونة والإضاءة فى الأركان وترتيب المقاعد .

وسرعان مامرت الساعات . . هكذا الأوقات السعيدة ، ليت الأحلام لاتستغرق أكثر من ثوان ومن أدراها ؟ ليتها تنعدم تماماً ولاتبقى إلا الأحلام

الواعدة بالورود . . ولكن لم تتخيل هاهى ذى الباقات تدخل البيت من الأصحاب والأحباء . . لم لا تعيش واقعها الجميل بدون تخيل ؟ ساعات أخرى سريعة مرت والابنة المحتفل بها تتحرك بشباب ناضر وملامح تشى بسعادة تصاحبها أينما تسر ، وتكونت باقات صغيرة من المدعوين . . وفوجئت السيدة ل بابن خالتها الذى وصل من الخارج مؤخراً . . مازال وسيماً مرحاً كما عهدته إلا من بعض شعيرات بيض على فوديه .

لكن ما أثار انتباهها حقيقة هو رؤيتها لابنتها تحادث القريب الذى كان غائباً بهمس ومكر معاً . . ومد يده إلى قريبته الكهلة ضاحكاً وقال : اسمحى لى أن أسلم ثم . . أفر ! جئت من الخارج من أيام قليلة . . مجيئى اليوم . . وقطعت كلامه ضحكة من المحتفى بها مجلجلة صاخبة . . وأكمل حديثه . . لعلك أحسست بالتواطؤ بينى وبين ابنتى الحسناء . . لاتندهشى ، مستطيع أنا أن أنجب من فى عمرها لكن ليس فى فتنتها !

الصدفة أو الحظ هو ماجمع بينى وبينها . . واجتاحتها المشاعر . . كانت تعرف عنه المرح مع دماثة محببة ، وكان لايني يشرح لأحبائه أن أكثر مايسعده ضحكة من الباطن صادرة من قلب خلى متفتح . . وبحكم المناسبة والعادة تكونت جماعات صغيرة من المدعوين ، أبرزها من تصدرتهم صاحبة البيت وقريبها الذى افتقدته الأسرة طويلاً ، وقال مقترحاً على البعض . . دعونا من المشاكل اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية لنقم ببعض الألعاب أو أحاديث طلية ومسلية . . وفجأة ودون سابق إنذار اقترح الضيف : مارأيكم فى تفسير الأحلام ؟ لا . . لا ترفعوا أيديكم . . .

فيما مضى كانت قراءة فناجيل القهوة متعة العصر ، أما اليوم وعن طريق تجربتى فى التحليل النفسى . . أهدى لكم حلولاً لأحلام مغلقة أو متكررة غامضة تعلمون أننا نحلم ، لنتخفف من أفكار يصدرها العقل ونحن فى يقظتنا و . .

ولم تدر كيف تحدثت السيدة ل ؟ ولا كيف خرج صوتها بكلمة ولفتة ؟ رنت كما ترن قطعة معدنية أصيلة : حمداً لله على سلامتك ، جئت فى الوقت الملائم تماماً . . كم ستخفف عنى ياقريبى العزيز ! كم ستخفف عنى ! وأدارت الابنة رأسها الجميل كعصفور تلقى حبات مياه رقراقة . . التفتت بمجامعها إلى أمها كأنها اكتشفت باطنها وتسللت إلى حنايا نفسها وأخيراً تربعت فى بقعة من قلبها النابض دائماً المتلهف بنداء اسمها ، خرج صوت الابنة هذه المرة كأن دفء حنان الدنيا لف رداءه فغطاها : – لعلك بخير يا أمى فى . . فى عيد ميلادى !

وتلفتت السيدة ل وقالت كدأب من يريد طرح الشكوى وإخفاء معالمها فى الوقت نفسه . . هناك امرأة تشاهد فى منامها ابنتها الحبيبة . . ابنتها « الوحيدة » ترقد فى صندوق خشبى . . لعلك حدست ياقريبى العزيز معنى هذا الصندوق ! ثم تخيل هذا الحلم يتكرر سنوات طويلة . . بعد ولادتها مباشرة . . وأتاها صوته .

– أرجو ألا تضارى . . إذا طرحت بعض أسئلة أو معلومات عن الأم . . هل تزوجت مرغمة أو برغبتها ؟ كذلك مسألة حملها وولادتها . . لابد أن أسأل السيدة نفسها .

ودون تدبر عقبت السيدة . . اسأل . . اعتمد على . . عندى كل

المعلومات .

وأدرك القريب وفهم ، وبعد لحظات طرح سؤالاً برقة – لم أنس ياعزيزتى أنك عملت (مانيكان) فترة من الوقت . . وأنك كنت تعتزين جداً بقوامك – ولن أتهم بالغزل – لو صرحت بأنك كنت فاتنة حقا . . و . . ومازلت . . والآن كيف تم الحمل ؟ أعنى هل كان برغبتكما معاً . . أنت وزوجك ؟

ونكست رأسها ثم سردت ماحدث بسرعة وترتيب زمنى . حقيقة تم الحمل بطريق الخطأ مما أغضبنى كثيراً وحاولت الإجهاض بشتى الطرق و . .

ورفع القريب كفه مقاطعاً . هاهو ذا التفسير . . الصندوق الخشبى هو (الرحم) والابنة هى الجنين الذى رغبت فى إسقاطه .

وأغمضت عينيها . . الليلة عيد ميلاد ابنتها وعيدها هى أيضاً . . لعل الستار سيسدل على آخر حلم يضم هذه الصورة التى تبدو كأمنية بغيض ظالمة ، النفس البشرية المعقدة ستبقى دائماً أخطبوطاً يدفع أرجله إلى نواحٍ شتى قد تطول إلى المدى البعيد وقد تلتوى وتتشابك ، لكنها فى النهاية لابد أن تنعزل بعضها عن بعض ليبقى الأخطبوط يتزاوج ولا يندثر .

أضيئت شموع التورتة ، وساد الظلام . . إلا من أضواء الأركان ، وامتدت يدها الحنون تلامس ابنتها الحبيبة . ورنت إليها بحب ولد مع مولدها . . نما وتكثف وصنع غلالة غليظة حامية واهتز رأسها بسخرية مرحة ، وانطلقت من باطنها أسئلة . . هل كنت أريد حقا وأد أمومة لابنة (وحيدة) ؟

ولما انفض الحفل جاء القريب مصافحاً قريبته وقال ضاحكاً – هل أقول : أحلاما سعيدة !

شقة فى الجنة

أسير الهوينى . . المكان خال . . يقولون : إن القاهرة تكتظ بالسكان والشوارع ملآى بكل شىء . . رجال . . نساء . . أطفال . . عربات . . ترام . . باصات . . مترو . . ترولى . . ولا موضع لقدم . . أقيمت الكبارى العلوية . . الزحام يشتد . . مدن القناة فى طريقها للتعمير . . الزحام يشتد . . مازلت أسير الهوينى المكان خال والقاهرة تكتظ بالسكان . . إذن فأين أنا ؟ ألست فى مصر؟ بلى وفى القاهرة بالذات الوقت ليل . . والسكون يلف بعباءته الكبيرة التى لاحدود لها . . كل شىء . . أرنو إلى السماء الداكنة وأتلفت حولى كلهم معى . . المعمرون والأحداث على حد سواء . . (الوحيدة) المتيقظة أنا . . انفجار سكانى . . عندما يسير الفرد ويحط قدمه على الأرض لايجدها بل تلامس قدمه قدماً أخرى ، وليس هاما لمن تكون . . لكنى هنا فى هذه البقعة

أسير كالفراشة . . والسكون يلف بعباءته الكبيرة التى لاحدود لها كل شىء . . دق قلبى بعنف . . خائفة أنا لكن لماذا ؟ سمعت أقرب الناس إلى يقول : فى يوم ما . . أبيع روحى وعمرى كى أعيش لحظة منفرداً بعيداً عن الناس . . عن الضوضاء . . عن اللغط . . عن المشاكل . . عن الاصطدامات . . أبتسم وأرنو إلى صورته المتخيلة هأنذى ياصاحبى أعيش وحدى . . حقيقة أن المعمرين والأحداث ، جميعهم يحوطوننى من كل صوب وحدب ، لكننى والله . . (الوحيدة) التى تسير فى هذه البقعة ، تعال معى . . صاحبنى لترى ما أراه وتحس بوجيف قلبى وبدنى الذى يرتعد خوفاً . . ولكن ماهذا . . غلالة بيضاء لاحدود لحجمها ، المدهش أنها تتحرك . . تسير . . لا . . بل تقفز (كبراشوت) يتقاذفه ضغط الهواء . . هبط من طائرة عابرة ، ربما يحمل بين جوانبه إنساناً مطارداً من شىء مجهول ، فقذف بنفسه إلى أى مكان ، ربما تعترضه قوى غريبة قد تفترسه أو تعذبه أو تكيل له الصاع صاعين ، وربما كانت العدو الحقيقى الذى هرب منه سالفاً . . ليكن . . إنها مغامرة أولاً وأخيراً .

أطلقت صرخة مدوية ، لا لأن الشبح الأبيض اقترب من موقعى ، بل لأنه اختفى تماماً من أمام ناظرى !

من منا لم يخطط للغد ؟ من منا لم يحلم بالورود تلون أيامه ولياليه . . فى السنوات العشر الأخيرة امتلأت رقعة الأرض بكل شىء . . لا أريد استرجاع مارددته ، فالناس بالإضافة إلى يعلمون أن الكائنات كلها ارتطمت بعضها وبعض ، وضاقت رقعة الأرض بمن عليها ، ولم يبق إلا الهواء ، فهل سيكفى أوكسيجينه لتعيش الخلائق مرة أخرى يحسدوننى على هذا السكون الذى أعيش

فيه وحدى . . وحدى رفيق عمرى يعمل . . ويقول لى – أحسن شىء قمت به أنك قدمت استقالتك من وظيفتك لتتفرغى . . أتفرغ ؟ لمن ولماذا ؟

لم أحمل بعد ، وليس لدى أولاد أربيهم ، يجب إعادة النظر فى موضوع انفرادى وحدى . . نهاراً قد أستطيع مغالبة الوحدة . . لكن مساء . . ينام هو مبكراً مكدوداً من تعب النهار . . وبالنسبة لى يستوى الأمر . . النهار يمسك بتلابيب الليل ، يتحدان ، تبتلع أشعة الشمس فى جوفها ضوء القمر ، وتظهر النجوم فى عز الظهر !

وأحياناً أحس بلفح الشمس بعد منتصف الليل . . لابد أن أتقدم بدراسة ، لنيل الدكتوراه فى كيفية تغيير نظام الكون ! ليس هناك مستحيل وقد علم الإنسان مالم يعلم . . آه أسمع همساً يدور . . أركز حواسى لأستمع جيداً . من الذى يتحدث ؟ وما الذى يقال ؟ ومن المتحدث إليه ؟ آه . . يقول المتحدث إنه فرعون . . فرعون ؟ لم أسمع قط أن من المعاصرين من يسمى بهذا الاسم القديم . . القديم ؟ لابد أن أقترب من المكان . . آه . . هنا . . حيث . . لا . . سأخدع نفسى ، وسأغفل تماماً عن تسمية المكان باسمه الحقيقى ، التمويه أحياناً يوصل إلى الحقيقة الناصعة . . كل ما سأفعله هو أن أركز للاستماع جيداً . . لكن كيف فاتنى هذا ؟ أملك جهازاً للتسجيل . . لكنه لايعمل إلا بالكهربا وهذه لن تتوفر فى هذا المكان الموحش . . هه . . الموحش ، أخيراً نطقت الكلمة الصادقة ، لملمت أحرفها وكتبتها مضبوطة ، ثم قرأتها بصوت عال ، المهم الآن أن أكمل الاستماع للمتحدث الذى يقول : كيف تعيشون الآن ؟

هاهو ذا المتحدث إليه يرد : -تتنفس الهواء وتملأ البطون وأحياناً تغنى !

الآن . . سأرتب الحوار ، تماماً كما استمعت إليه هكذا ، ولن أتدخل بينهما ، إلا عندما ينتهى حوارهما :

– كيف تغنون والمشاكل تملأ بطونكم ؟

– وما الذى تنتظره من أناس ، أحاطت بهم كل المشاكل ؟

– أن يواجهوا أنفسهم ويعلنوا الحقيقة ثم يحلوها . .

– مثلكم . . حضارتكم لم نصل إليها . . ويبدو أننا لن نصل . ! .

– على العكس . . فأنتم فى طريقكم لحلها . . إذا ما تأزمت الأمور فلابد أن تتعقد تماماً وهنا . . يكمن مفتاح الحل .

– بالله عليك أرشدنى . فقد ناء الحمل وكتم أنفاسى .

صه . . هناك من يتلصص علينا . . واحدة من المأزومين !

وبسرعة فائقة ، ولأننى تيقنت تماماً أن المتحدثين أحسوا بوجودى خطوت خطوات واسعة أقرب إلى الجرى ودق قلبى . . أشخاص تتحدث بصوت أسمعه ، يرونى ولا أراهم . . هذه هى البداية . . من كان يصدق أن السنوات تمر . . تبتلع فى بطونها كل ما أحببت ، ليس ذلك فقط بل تخفى بين طياتها أيام العز والرفاهية وهدوء البال ؟ من كان يصدق أن المطاف ينتهى بى إلى هذه الحال ؟ كانت الحديقة تحيط ببيتنا ، ولن أقول قصرنا لئلا أتهم بالطبقية ! كانت الورود بألوانها الزاهية ، لاتكتفى بجمالها ، لكنها تبعث بأريجها الفواح ، وتنادى ثمار الفاكهة المرشوقة فى الأشجار أو فى طمى الأحواض .

كان البستانى واحداً منا . يتناول من طعامنا ويرتدى من أقمشتنا ويشاركنا فى

الأفراح والأعياد ، وكنا جميعاً نرفل فى الحرير والأصواف الناعمة . . كنا نستمتع بدفء الشمس شتاء ونتنسم عليل هواء الشواطئ صيفاً . . ننام لنحلم بورود الغد ونخرج للتحصيل العلمى . . حياة مرت كالأحلام . . وعندما دق بابنا فارس يمتطى معزة ، قال له من احتل مكان أبى . . خذها . . الأيام تمر . . ولا نضمن إن كان هناك من سيطلبها غيرك مادمت ترافقها فى مراحلها العلمية . . إذن فبينكما شبه وشائج . . بطبيعة الحال سأسألها رأيها ولو أنى مقدماً أعرف عنك الكثير .

هكذا ببساطة أوضع فى طابور العرض وفوراً ، أخرج عن الطابور ، لماذا أتوه فى أفكار الأمس ولا أواجه اليوم ؟ هنا فى هذه البقعة الخالية ، يجب أن تتوفر لدى الشجاعة حتى أأتلف أنا وهذا الجو القاتم . . سأحاول تغيير مكانى . . هنا فى هذا الركن حيث الأحجار التى كونت مستطيلات بعضها بجوار البعض ، سألف بين الممرات الصغيرة القصيرة الطول ولابد لى فى أثناء سيرى أن ألامس الأحجار لأحتفظ بتوازنى . . لابد لى مادمت انتويت تغيير البقعة ، أن أحتفظ بكل قواى العقلية والبدنية ، لكن هل يعقل هذا ؟ أيعقل أن الأصوات تخرج من هذه البنايات المستطيلة الصغيرة . . ها . . هذا هو التغيير إذن . . صوت امرأة تنوح وأخرى تهدئها ، يجب أن تتوافر لدى كل إمكانات الأعصاب الهادئة المتمكنة ، كى أحسن الإصغاء . . هنا دنيا جديدة وعالم غريب بالنسبة إلى التى تنوح أستطيع بجهد أن أستخلص بعض كلماتها .

– الغيرة نهشت قلبى . . مزقتنى . . أحببته بكل قواى . . وإذا به يخذلنى ويتزوجها ، ليس ذلك فقط ، بل ينجب منها أيضاً . . فأحس مع الغيرة بالعار

والذل والنقص . . تلومونني ؟ كيف ؟ هل جرب واحد منكم شعور المهانة وأنه أصبح كريهاً منفراً ! كرهني زوجي ولفظني ، كلقمة مدنسة ! ماذا ترين بعد ذلك ؟

وسمعت ضحكة . . يانهار أبيض ! بعد هذه المأساة وهذا القهر ، الذى شعرت به صاحبتنا يكون ذلك ، مجلبة للضحك ولكن لأسمع ماذا تقول ؟

– ماذا تقولين فى شابة لم تتجاوز العشرين وهى تراهن لذاتها فى سباق للسباحة ؟ هناك فى الإسكندرية كنا صحبة من الفتيات ، تراهنا على الوصول سباحة إلى صخرة ، تبعد عن الشاطئ كثيراً . . وهب . . أحسست بالتعب لم أكن أدرك أننى كان يجب على أن أدخر قوتى ، رويداً رويداً حتى تلائم بعد المسافة ، كنت الأولى فى أول المشوار ، وفجأة ابتلعتنى المياه . . وكان حزن وكان فراق لأعز الناس إلى ؟

هأنذا أتلصص ، دون تعمد لمناقشات بين أناس لا أعرفهم ، وهم أيضاً لا يعرف بعضهم بعضاً إلا بحكم الجيرة بحكم الظروف . . زوجى دائم الاعتذار لى ، قال ويقول لى دائماً . . ارتبطنا بالزواج . . تتحدثين دائماً عن ماضيك وعز أبيك ، أنا أيضاً عشت فى رخاء ، لكن الدنيا تغيرت . . قامت حروب وكثر النسل برغم وجود الموانع والوعى عند الناس ، تترددين على الصيدليات وعيادات الأطباء ، فتجدين حبوب منع الحمل وأشياء أخرى اكتشفها الطب الحديث ، ومع ذلك عندما تمرين على المستشفيات لسبب ما تسمعين تأوهات النساء الحاملات وهن يضعن أحمالهن ، فيكثر التعداد . . يجب أن نساير الزمن يازوجتى الحبيبة ، من منا يصدق وخاصة أصحاب الأملاك أنه بمرور السنوات

ستحدث أزمة فى المساكن ؟ آه ! إن تفكيرى يتوقف عند هذه النقطة . . أزمة المساكن . . ألم أقل من قبل : إن الناس جميعاً يشتكون من الضوضاء والانفجار السكانى ؟

كان الحل عند زوجى . . ببصيرته . . اختار هذه البقعة وقال – ملك أهلى . . نزلوا لى عنها – مؤقتاً – حتى نعثر على مسكن ! على من يضحك زوجى ؟ على أهله أم على ؟ أم واقع الأمر إنه يخدع نفسه أولاً وأخيراً ! وعندما همس فى أذنى قائلاً : تعالى معى نزور طبيباً نفسيا . . ضحكت لسذاجته . . ورددت هو أنت يا زوجى . . ألم تكن صاحب المشورة ؟ كل الناس تتزوج إما فى بيت أسرة الزوج أو أسرة الزوجة ، تقول وتردد دائما ، أنك تحب الاستقلال ، ولو فرض واستقر بنا المقام فى أحد البيتين الكبيرين فسنبقى إلى الأبد . . حتى يرحل أهل الدار الأصلاء إلى دار الخلود ! وهانحن الآن فى حجرتين مستقلتين ، لا أنكر ذلك ، لا أنكره بتاتاً ، لكن كيف أسد أذنى عن الاستماع إلى هؤلاء القوم ؟ لا يحلو لهم الحديث إلا مساء ! وأنا لا أصاب بالأرق إلا ليلاً . . أدمنت الاستماع الى أحاديثهم وكلها اعترافات بما اقترفوه طوال حياتهم ، أحياناً أستمع إلى الرجال ، وعندما أمل أعرف الطريق الذى يوصلنى الى حيث تسكين النسوة ، وها هو آخر حديث استمعت إليه . . واحدة تشكو من غدر زوجها وأنها لا . . لا أستطيع مواصلة التفكير فقد انتهى بها المطاف إلى أن تتحول إلى قاتلة ! والأخرى غرقت فى البحر برغم تفوقها فى رياضة السباحة أبعد ذلك تقترح على يا زوجى العزيز أن أزور طبيباً نفسيا ؟ من منا الجدير بالزيارة ؟ هه !

فى أوقات النهار ، والسويعات تمتص وقتى بين أعمال البيت والقراءة ، أحس ببدنى مكدوداً يحتاج للراحة والاستجمام ، وعندما أفكر فى فتح نافذة ، لا تدرى ما الذى يحدث ؟ هل أواجه نفسى بالحقائق أو أموه عليها ؟ لو قلت الصدق فربما يجبرنى زوجى على الذهاب إلى الطبيب النفسى ، وهو ما أعده إهانة لشخصى وجرحاً لكبريائى ! . . لكن هنا فى هذه البقعة الموحشة لا أجد غضاضة من مواجهة نفسى !

الآن . . الآن تلفت أعصابى أوكادت . . لابد لى من فتح النافذة وغالباً أفتحها ، وأنت غائب يازوجى العزيز أحس بالضيق . . بالملل . . العمل شرف ، هذا حق وأنت تعمل وتشترط على ألا أعمل ، فيكفينى البيت وأعباؤه ، بودى أن تجرب . . تجرب الروتين اليومى وما يتبعه من ملل . . أحياناً أطارد الفراشات تماماً كما كنا أطفالاً ، لا لشىء إلا لمضيعة الوقت . . أرأيت ؟ أقول مضيعة ولا أحس بمعنى الكلمة ومدلولها إلا عندما أكتهل ، ثم أشيخ . . الوقت الضائع كم سأندم عليه فيما بعد ! والآن لابد لى من فتح النافذة . . هكذا . . نعم هكذا لن أخاف هذه المرة ، لقد تعودت رؤيته . هذا الكائن الماثل أمامى . . امرأة كان أم رجلاً يستوى الأمر عندى ، فالقماش الغليظ الأبيض الفضفاض ، يخفى من تحته . . لكن هذه المرة امتدت يد بشرية واقترب الشبح منى . . إنه يقترب ، يكاد يحاذى النافذة ، لعله روميو ويتمثلنى حبيبته جولييت آسفة يا روميو فليست لدينا شرفة تليق بمقامك ، تتفق مع صبرك وسهرك الليالى تحت النافذة ، لن تحتاج لسلم ترتقيه لتصل إلى هأنذى بين يديك . . ماذا . . ماذا تريد ؟ تريد اختطافى ؟ لا . . ليس إلى هذا الحد

ارتفعت الكلفة بيننا ، ما زلت زوجة وسأظل . . لزوجى !

زوجى مصر على مرافقتى للطبيب النفسى ، وأنا أؤكد أن الأجدر بالزيارة هو زوجى نفسه . . ألم يكن صاحب الرأى والمشورة ، لم أعترض إطلاقاً على عيشى وسط أفراد أسرته ، لكنه أصر على الاستقلال فى هذه البقعة النائية ، ولما أقسمت له بكل الكتب السماوية ، إننى أستمع إلى الحجارة المستطيلة وهى تتحدث ، ولولا عدم وجود كهرباء فى البقعة نفسها ، لسمع من جهاز التسجيل ما يشيب له شعره ، لكنه أبى تصديقى ! عذره فى ذلك – لم لا تستشيرين الطبيب ليحكم من منا مريض ؟

قلت له – وما احتياجى للطبيب وكل أجهزتى سليمة ، فسمعى دقيق وعيناى تبصران إلى مسافات بعيدة بقوة ووضوح ، وبدنى سليم وعافيتى موجودة وعلى كل حال لا مانع لدى من الزيارة .

سأخدع زوجى وأموه عليه أننى سأزور الطبيب ، وحقيقة الأمر أن الزبون الشرعى سيكون زوجى . . لا . . أنا ؟ ابتسمت للطبيب وقلت له : بعد أن شرحت لك الأمر بهدوء ، وسردت عليك التفاصيل والجزئيات ما الذى عندك لتقوله لى بعد أن طلبت الانفراد بى دون زوجى لتسائلنى ؟ حان دورك يا صديقى الطبيب لتعلق . .

هأنذا أرمقه بحب أخوى ، وأستمع إليه وهو يقول – أنت زبونة مريحة ، لم تحتاجى لجلسات كهربية أو حقنة مهدئة فقد فتحت لى قلبك على مصراعيه ، واكتشفت أنك شخصية منبسطة التكوين تميلين للمرح ، طيبة القلب . . كلنا نعرف ونلمس تماماً مشكلة أزمة المساكن ، أولى المشاكل وأضخمها ،

وحيث ان الوفاق شبه كامل بينك وبين زوجك ، وحيث إن الدخل المادى لكليكما لا يكفى الحصول على شقة فى الوقت الراهن ، شأنكما كسائر الناس ثم ما سيترتب عليه بعد ذلك من أعباء مالية ، عرض عليك الأمر ، عرض زوجك عليك أن أسرته تملك حوشاً فى الإمام الشافعى ، وأن هناك حجرتين بجانب المقابر مع دورة للمياه ، وقد وافقت تقديراً لظروفه ، الظروف التى يتحملها كل واحد منا ، بالنسبة للانفجار السكانى وتعداد القاهرة الرهيب ، فكانت النتيجة ائتلافك مع المقابر ! وأصحابها ، وأنك تتخيلين أمواتاً قدامى وشخصيات تاريخية وأخرى معاصرة . والأزمة الحقيقية هى أنك تعانين من فراغ ، هل شاهدت شوارع القاهرة المكتظة والمواصلات المعقدة ، ومشاكل المياه والنور ؟ كل ذلك فى قلب العاصمة . . كثيرون يا سيدتى يحسدونك على البقعة ، التى تسمينها نائية أو موحشة .

كثيرون يتمنون قضاء أيام فى هذه البقع ! لينسوا مشاكلهم إلى حين ، ولو عن طريق الخداع يسعدنى أننى تعرفت بك وبزوجك ، مشكلتك الحقيقية هى . . كيف تملئين وقت فراغك ؟

وهل وجدت إخلاصاً فى الأحياء لم تجديه فى الأموات ؟

ليست لدى نصيحة أسديها إليك يا سيدتى . . سوى . . عيشى يومك ، وانسى أمسك . . تطلعى إلى الغد ، بما يحمل من آمال وتطلعات . . الكل يسعى . . الكل يكافح . . الكل يهدم القديم ويبنى الجديد .

إنه قدرنا يا سيدتى ، قدرنا أن نعامل أمواتاً ، ربما مثلوا لدينا شهداء لولاهم ماكانت هناك حروب أو انتصارات .

ستٌ أصابع فى قفاز

أنت الآن بجانبى أرنو إليك من قرب . . دأبت على ذلك منذ سنوات لعلنى أجد جديداً فهل وجدت ؟ لولا آمال الغد لقبعنا فى أمكنتنا ! . .

القطار يقطع الطريق إلى يوم جديد ، وربما إلى غد مشرق ، وآمل ألا يكون اليوم والغد كما كان الأمس وقبل الأمس . . لا أستطيع أن أدين أمى وأبى فى أن التكافؤ الزوجى لم يكن عادلاً لقد تعمدت . . تعمدت أن أكون المتفوقة لا فى الاختيار ، ولكن فى تفردى وذاتيتى !

ضآلة زوجى – فى تكوينه الجسمانى والذهنى والنفسى ، لكنه عندما يتفرس فى قسمات وجهى ومعالم نفسى ودروب حقيقتى . . يتيه ويتوه ، وهذا كل ماكنت أصبو إليه . . . لو سجلت أحاديثنا الباطنية فى كل دقيقة وثانية لانخلعت جذور الأشجار الباسقة التى تحيط بجانبى القضبان الحديدية حيث يسير

القطار تساندها وتعزف معها لحناً هزازاً صاخباً . .

الرجل يسود والمرأة بوقه خافضة الصوت بطيئة الخطو سريعة التلبية لاهثة الأنفاس من طول الانتظار . . هكذا تتوهم ياحمدى . . ولم لا أغذى وأنمى ماروضت نفسى على تلقينك إياه ؟ هأنذى أضحك . . عفواً . . بل أقهقه وكل باطنى يسمعنى إلاك . . ألم يتجفف جانب وجهك من طول التطلع من نافذة القطار ؟ لعلك تحصى أعمدة الكهرباء أوعدد الحمير التى ترعى الحقول ! . أقسم لك إنك تنظر إلى لاشىء ، ومع ذلك فلأجرب – بماذا تشعر صبيحة اليوم ؟

والتفت حوله الحمير وظللته الأشجار وتيبست أصابعه . . لابد أن أقذف بمتفجرات كى يصحو من يقظته المتجمدة . . هاهى ذى كفى تمتد فتملأ وجهك وتفيض وتلعثمت أهدابه ، وارتفع حاجباه الكثيفان ، وانفرجت بعض الأسارير !

– ماذا دهاك ياجمالات ؟

« لاشىء تقريباً منذ سنوات حتى قبل أن ننجب طفلتنا نجلاء . . أليس كذلك ياحمدى ؟

– ألم تسمعنى ياحمدى أناديك . . أعنى أحادثك ؟

يالى من غبية وهل هذا سؤال . . لو كان قد سمعنى أكان يتجمد هكذا وكأنه وجد مع القطار منذ أن سيروه على القضبان أول مرة ! ربما . . ربما ماأتصوره أنا من هيمنتى على بيتنا من ترتيبه هو . . من إنتاجه وتوزيعه . .

عال . . أصبحنا الآن وجهاً لوجه . . لك الله أيتها الحمير من الذى سيرصد حركاتك ؟ .

– ماذا قلت ياجمالات ؟

مضت أكثر من خمس دقائق وأنا أقنعك بأنى أحادثك . . لو تعامل الناس على هذا النحو . لمضت بنا الحياة . . إلى سن خمسمائة العام . . ياله من عمر !

– لا شيء . . لاشيء ياحمدى !

* * *

ربما لتطلّعى خارج النافذة أتخيل نفسى طليقاً تظللنى وأحياناً تدفئنى شمس الكون المدفئة . . أرجوك يانجلاء . . ياطفلتى الحبيبة أن تقتنعى بأنه لولاى . . لولا أبوك مارأت عيناك النور . . إن أحبَّ شعور طبيعى . . أن أمد يدى لأؤكد لنفسى أولاً ولك ياجمالات آخراً أنى لم أتوقف عن المضى مع الزمن . . هل تشعرين بوجودى أو غيابى مع أن الأماكن تختلف ؟ فالطريق غير البيت . . والهواء المحجوز المكثف يختلف تماما والهواء اللافح المتجدد ، أقنعتنى بأنى أصم . . أبكم . . أعمى . . وهأنذا أشاركك فى هواجسك !

بالليونة أستطيع أن أقطف الثمرة الناضجة ربما لو استعنت بعصا غليظة كى أنالها تتهشم الثمرة وتمتصها كور الطين ، فتتلوث ولاتصلح للأكل مهما نظفت أو طهرت ! . الصوب العالى ياجمالات لاينبى عن قوة وجبروت ، ولكن من منا الذى يقنع الآخر ؟ أنت ؟ هذا مايدور فى ذهنك وماعملت أنا على إنمائه . . فشعورك بالتفوق ربما يعاون فى خلق ميادين رحبة هادئة أما زلت تؤمنين بأنك

صانعتى ؟ . . ألاتسمعين وأنا أكرر . . من يملك عضلات ليس بالضرورة أن يبرزها ؟ . . .

* * *

توقف القطار عند آخر محطة البلدة التى سيستقر بها حمدى وجمالات وابنتهما نجلاء ، يسيرون يتطلعون بعيون فضولية لبلدة سيمكثون فى ربوعها لفترة لم تحدد بعد . . وتلفتت جمالات حواليها وقالت بانبهار وحيوية بعد أن شاهدت أكثر من وسيلة للمواصلات ضمنها عربات الحنطور القديمة :

–هل راودتك فكرة ياحمدى عن طريقة المواصلات؟

وألحقت بسؤالها : هذه بلدة طريفة حقاً . . . أليس كذلك يانجلاء ؟

ومدت الطفلة يدها تمسك بذراع أمها ضاحكة وهى تقول : هل سنتنزه اليوم يابابا ؟

وأجاب حمدى بتؤدة : نعم . .

ثم همهم . لفترة لايعلم مداها إلا الله . .و

ثم رنا إلى جمالات . . ! ركبوا سيارة أجرة وبعد ربع ساعة توقف التاكسى أمام بيت من طابق واحد تحفه حديقة منسقة . . وتطلع حمدى إلى النوافذ وهو يدفع أجرة التاكسى للسائق ، وهمست جمالات لزوجها : من سيعاوننا فى حمل ونقل الحقائب ؟ لماذا لاترد ؟ أتظننى بعد إنجابى نجلاء واستهلاكى اليومى فى أعمال البيت مازلت مدخرة قوتى ؟ . . ماذا دهاك ؟ . أمازلت تتظاهر بالتماسك و . . .

– حسن ياأسطى ، شاكر لك أفضالك فى معاونتك لنا فى حمل

الحقائب ! نعم . . أصحاب البيت فى انتظارنا . .

وفجأه انفتحت النوافذ ، وأفرد باب الشقة جناحيه ، وخرجت منهما امرأة شابة شاحبة الوجه ذات عينين واسعتين سوداوين ووجه بيضاوى وشعر أسود طويل مسترسل

– أهلاً . . الأستاذ حمدى . . على ماأظن !

نعم ياعزيزتى السيدة المضيافة . . هكذا أرادت الشركة أو الرؤساء . . لأزمة المساكن المستحكمة سنقيم معكم . . مؤقتاً ! هذا هو ماأتفق عليه . . فكان عملى هنا فى هذه البلدة الوظيفة التى كان يقوم بها نفسها زوجك العزيز . . الزميل الذى لم أتعرف به بعد . . فسينتقل إلى بلدة أخرى نائية . . المضيف يستقبل ضيفه بترحاب كبير هو وأسرته دون سابق معرفة بينهما ألا يعد هذا كرماً على المستوى العالمى ؟

وانفرجت أسارير حمدى – نعم يا سيدتى الفاضلة وهذه زوجتى جمالات .

وارتفعت نجلاء فى الهواء عندما حملها أبوها واستقرت على صدره ، وهذه عزيزتنا نجلاء ، مدى يدك يانجلاء ، وسلمى على خالتك . . .

وانبعثت الدماء إلى وجنتى المرأة ، وتألقت عيناها ، وامتدت يداها برعشة خفيفة

– خالتك بثينة . . تعالى ياحبيبتى . . .

وامتدت يدا الصغيرة وانتقلت بسرعة إلى صدر السيدة . . غريب حقاً ما حدث ، فابنتى نجلاء قلما تأنس لأناس غرباء ! . ما انطباعك ياترى يا جمالات ؟

وتأملت جمالات قسمات مضيفتهم على مهل . . حتى الآن ما زلت أجمل امراة !وانبعثت من شعورها المستريح كلمات منمقة :

– أرجو ألانثقل عليكم . .

ثلاث حجرات وصالة . . يعنى مفصلة تماماً على أصحاب البيت والضيوف ! ماذنبنا ؟ أوامر الشركة أو الرؤساء . ترى هل تحسين يا جمالات بفداحة مانحن مقدمون عليه ؟ أعملية توفير أم اكتساح ؟ أعرف مقدماً ما نوازعك ؟ . استعراض أنوثتك وإمكاناتك المتعددة كربة بيت فاشلة . . هاهو ذا أخيراً . . كمال . . ياه ! أهو موظف مثلى ؟ الموظفون عادة إما ذوو كروش وأجسام منبعجة أو نحفاء ضامرون ، أما أن يكونوا من أصحاب كمال الأجسام بارزى العضلات فأمر لم يخطر لى على بال ! . لقد اكتملت الباقة ! سوف نستمتع بفصول طويلة شائقة ربما تتخللها مشاهد تراجيدية أو هزلية ، وهذا يتوقف على . . يا ساتر ماله يتحرك هكذا . . . .

دبت قدم المضيف اليمنى وامتدت يده مرحبة . . عفواً بل مقتحمة يدى المعروقة المجهدة :

– أهلاً بالزميل حمدى . . بيتك تفضل

نعم يا عزيزى هرقل بيتى سواء رضيت أولم ترض !

* * *

من اللائق أن تكون النزهات هى أول مايجمع بين الأسرتين . . مثلاً فى الحدائق التى فى أطراف البلدة وبعض المعالم كمتحف الشمع أو بعض العيون المعدنية ، أما دور السينما والملاهى ففى الوقت متسع لتمضية سهرات فيها ،

وخاصة أن نجلاء من العوامل المعوقة لقضية سهرة مريحة مطمئنة . . ناهيك عن عدم توافر الشغالين ، ففى النزهات لن يحتاج الأمر للإنفاق أو الولائم المتبادلة ، وعلى ذلك فالإحراج لامجال له هنا .

بعد أيام قليلة سيتسلم حمدى زمام عمله فى البلدة هنا . . والترحاب فى انتظاره لكنّ كمال أو هرقل ما دوره بالتمام ؛ وخاصة بعد أن دار بينهما هذا الحديث الذى استهله كمال قائلاً : — لا أريد أن أعقب على الأمور بسرعة فأقول مثلاً : إن الرؤساء تسرعوا فى إدماجنا كأسرتين تحت سقف واحد لا لغرض سوى الاطمئنان على أنك ستقطن فى بيتى فيوقنون بأنك لن تواجه أية مشكلات أما عن نفسى فالبلدة التى سأنتقل إليها فى صحراء نائية ومأأكثر بيوتها المهيأة فيها سبل الراحة . . لكن لم يخطر لهم على بال مجرد خاطر أن يسألونى : هل أوافق على إجراءات النقل أولا ؟ لا تحملق فى هكذا ياأخ حمدى ؛ فنحن لسنا مسيرين فى مهنتنا إن لم أؤد عملى بمزاج رائق ما أنتجت شيئاً . . أما أن يفرض على العمل فى الصحراء فلست مستعداً لأن أجن ! ماذا تريد أن تلقنى إياه ؟ أرى على شفتيك كلاماً مصوباً إلىّ .

عظيم جداً يا هرقل ، أنت تشرح وتلقى الأسئلة وتعفينى من الإجابة عليها ، ثم تأمرنى ألا أبوح بما فى نفسى برغم أنك تشركنى فى الاستماع إليك ، وتقول إننا لسنا مسيرين !

— مثلا ياأخ حمدى أيرضيك أن تقوم بتلك الرحلة ؟ أعنى أن تتوه فى الصحراء بجثتك الهائلة تلك التى تستطيع أن تنبت الأشجار ولك أن تخلعها فيما بعد ، فلن تجد ما يشغلك فى أوقات فراغك إلا هذا . .

– مالك لاترد ياأخ حمدى هل فى حديثى مايبعث على الملل ؟

ودنا منه كمال وقال وضحكته العالية تسبقه :

– النساء لا يتحملن هذا الهدوء ، وخاصة إن كانت المرأة من اللاتى يتمتعن بحيوية متدفقة !

ربما كانت الشرفة هى الموقع الذى يجمع بين المرأتين ففيها أريكة مريحة وأكثر من مقعد والهواء المتجدد يلطف كثيراً مما يدور بينهما . . بثينة الشاحبة المحملقة بعينيها الحالمتين تتيقظان فقط عندما تتأمل قسمات جمالات الدقيقة المليحة وشعرها الكستنائى المقصوص وقوامها الفارع ، ومع ذلك فنجلاء العزيزة الحبيبة ترنو إليها . . إلى الخالة بثينة وتقول لأمها :

أحبها كثيراً ياماما فعندها لعب كثيرة وعصافير أيضا وكلب وقطة ، لماذا لا تقتنين هذه الأشياء الجميلة كلها ؟

لأن الطبيعة وهبتك لى كى أرتبط بحمدى الضعيف إلى أمد طويل . . وما احتياجى لكلب أو قطة أو عصافير . . مادمنا معاً ؟

وافتعلت جمالات حياء وهى تفرك ذيل ثوبها وتغض من بصرها وابتسامة منمقة ترتسم على محياها بحيث تصبح شفتاها فى وضع جذاب إذا ماالتقطت لها صورة !

– كيف تقضين أوقات فراغك يا بثينة ؟

مع ابنة فى عمر الزهور وتتحدثين عن الفراغ أم لعلك تومئين إلى ! حصلت على شهادتى الجامعية لكن صحتى عامة لاتساعدنى على القيام بعمل وظيفى ، وهذا لا يعوقنى عن القراءة فى كتب معينة لن تعرفى فحواها أبداً . . فهذا سرى

الخاص فى الحجرة التى احتللتموها . . ربما أؤجل خلوتى إلى حين أو أن . . أو أن . . أنتقل إلى الحجرة التى فى الحديقة . . وأعمل على تنسيقها . . فكرة . . فكرة جميلة حقا . .و

والله لوكانت لك أخت توءم ياحمدى ماكانت تختلف كثيرا وهذه البثينة . . الحملقة . . الذهول . . الجمود .

ورنت جمالات إلى ساعتها . . وانكمشت شفتاها . . لقد انقضت دقائق بل ساعات وأنا ألقى بسؤالى . ترى كم سنمكث مع هؤلاء القوم ؟ . آه كمال إنه مرح متدفق الحيوية . . أنت قرينى فى الصبر وقوة الاحتمال ! .

– أتحبين القراءة ياجمالات ؟

لقد تفتت الصخر . . لم لا ؟ ألم ينطق أبو الهول ؟

– ليس إلى حد الدأب . . فأنا أتصفح المجلات . . الأزياء . . مايخص المطبخ . . أرأيت ؟ لقد جاوبتك سريعاً . . ولم تمض ثوان وأدارت بثينة وجهها إلى الناحية الأخرى وقالت فى شبه خجل ومرح خفيف يشوب قسماتها :

– لقد هبت الرياح ، ويقولون إننا فى فصل الربيع !

* * *

أنتما الآن معاً كأنكما فى بيتكما . . كأنكما ! شاهدت محياى فى المرآة لم أتعمد ، ولكن بغتة الرؤية أيقظتنى على حقيقة سمعتها من آخرين وأخريات . . لماذا أنت شاحبة يا بثينة ؟ لأكثر من سبب أنوع من التغذية ؟ أم عدم التعرض الكافى لأشعة الشمس أم . . أعتقد أن السبب الوحيد المقنع هو الذى أحتفظ به لنفسى ! . كمال سافر إلى مكان عمله الجديد . . من يدرى ما سيستقر

عليه رأيه بعد أن يعاين المكان ؟ . لقد ولى لنفسه زمام أمرها فهو مرءوس وسيد نفسه هكذا يقول . . ترى ماالذى ستسفر عنه الحكاية والعزيزة نجلاء . . الطفلة الحسيبة التى قذف بها المجهول بين أحضانى . . كم أشتاق للأبناء . . فى مقتبل عمرك وعز شبابك يا بثينة ومع ذلك فأنت فى انتظار منحة السماء . . سواء كانت رذاذاً أو مطراً أو سيلاً . . وعلى كل فالسماء صافية والشمس مشرقة . . ومازلت فى انتظار تجمع السحاب لينقشع الضباب بعد أن تمطر . . استغنيت عن مراحل السماء الجوية وأخذت نجلاء بين أحضانى وللمرآة فضل آخر على ، فقد أنبأتنى بأننا متشابهتان كأنها ابنتى وليست ابنة جالات ! رغما عن ثقافتى منذ أن تزوجت وأنا جبيس البيت أما آن الآوان لأكتشف معالم الدنيا ؟

– صباح الخير ياست بثينة . .

يالك من رجل ياسيد حمدى أرى إشراقة تنبعث من محياك ربما لاتحس بها جالات

– أهلاً بك يا حمدى . . كيف حالك ؟

الواقع أن العمل يروق لى كثيراً . . وأرجو أن يستتب بنا الأمر ونواصل حياتنا هنا !

– تكيفت سريعاً فى العمل وتوطد بينى وبين الزملاء صداقات سريعة . . أحمد الله كثيراً

لم لا يا سيد حمدى ؟ البيت بيتكم وكأننا – نحن أصحابه – الدخلاء ! . أعاون زوجتك العزيزة فى كل أعمال البيت ، وربما فى نهاية الشهر تحصل هى على مدخرات !

وانتابت حمدى حيرة كأن هواجسه تلقنه الكثير مما يدور فى ذهن بثينة . . . إنها امرأة غريبة الأطوار لم يصدر عنها ما ينبئ عن إساءة . . على العكس : فالمسكينة ترحب بنا من حين لآخر ، وذلك لايحدث إلا للضيوف من المضيفين فهل نحن الآن ضيوف حقيقيون ؟ فى العمل أتنقل من المكاتب إلى الورش وأجد جديداً ينعش ذهنى ويدفعنى إلى طموح أستمد منه آمالاً كباراً حتى الطريق الوعر التى يقطعها بنا اللورى واهتزازاته تسلمنى لأحلام أحقق فيها الكثير.

ماأجمل العمل طالما وجد صدى ونفساً جياشة بالآمال ! عندما أرتدى الزى الخاصّ بالعمل أنسى ثرثرة جمالات وقدرتها الفائقة على الاستفزاز حتى نجلاء العزيزة بدأت تثرثر هى الأخرى منذ أن . . منذ أن . .

وتنهد حمدى ، وآثر أن يكمل حديثه الداخلى فى الشرفة . . يحتسى كوباً من الشاى الساخن وسيجارة لذيذة مع دخانها يستطيع أن ينفث الكثير !

– نعم شىء غير متوقع . .

قالت ذلك بثينة وحزن ماثل فى عينيها !

* * *

رنت جمالات إلى حمدى بتوجس ، وقالت ونظراتها موزعة بينه وبين بثينة :

– أتسمحين يا بثينة بقراءة البرقية لحمدى ؟ فالقلق ينتابه قطعاً بالنسبة للأخ العزيز كمال

القلق ينتابكما معاً أيها الضيفان الكريمان أما نجلاء فابنتى أنا يا سادة . . القلق ينتابكما ؛ لأن البيت أصبح بيتكما بالفعل والواقع . . حسن سأطمئنكما .

– نعم ياجمالات لقد حان الوقت لتعرفا كل شيء ! ولو أن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً . .

« العمل مرهق ومميل كما توقعت . . حاضر فى أقرب فرصة »

– هذا هو نص البرقية يا سيد حمدى فما رأيك ؟

ارتسمت ابتسامة خجلى على محياه وقال متلعثماً :

– الرأى . . رأى الرؤساء والمسئولين . . ولاقيمة لرأيى أنا .

صدرى يعلو ويهبط . . للمجاملة حدود أيها الضيف الثقيل لا أستطيع أن أبادلك ابتسامتك البلهاء ؛ ففى جعبتى الكثير . . لولا نجلاء لقذفت بكما إلى عرض الطريق . . ! أعنى ياربى لأتظاهر بالتماسك ، فصراعى يشتد مع كل تنفس . .

وأتاه صوتها العالى المحتق قائلاً .

– هل لو أمرك رؤساؤك بأن تقتلنا تنفذ ذلك بدافع إطاعة الأوامر ؟ .

ولم تمهله ليرد ، بل استأنفت حديثها الجاد :

– أنتما تمثلان الطرف الرابح : فالمعيشة مريحة والمسئولية مناصفة أو لعلها معدومة بالنسبة لكما أما الاستهلاك فأثاث البيت يتحمله ، وأثاثكم العزيز يقبع مستقراً هناك . . بعيداً ماذا يضرك يا سيد حمدى . . لو مكثتم معنا إلى الأبد . . هه . . لماذا تحملق فى هكذا كانني كائن غريب . . أرجو أن تنوبى عنه ياست جمالات فى الإجابة أم أن لباقتك قد خانتك أنت الأخرى ؟

أعقب ذلك الحديث المشحون خطوات سريعة قافزة توقفت حينما همست نجلاء قائلة :

– هل أنت غاضبة يا خالة بثينة ؟

تماماً كما حدث منذ سنوات بعد أن اندكت البيوت وانهارت . فجأة سكتت الحرب كان السكوت فادحاً فقد دفع ثمنه أرواح كثيرة . . وهنا فى هذه البلدة استقرت عزيمتى وحياتى بعد أن أوانى بيت جدتى . . ماتبقى لى من أهلى وعشيرتى . . هأنتذى نجلاء تنسينى إلى حين – لا أدرى مداه – أننى فى بيتى لاحول لى ولا قوة ! .

وارتفعت يدا بثينة ممسكة بنجلاء العزيزة تماماً كما حملها أبوها أول يوم وتلقفها الهواء فاستكانت إلى صدر . . خاو إلا من الحب والأمومة المرتقبة . وامتلأت عيناها بالدموع التى شوهت الرؤيا ، فتحولت نجلاء فجأة إلى طفلة رضيعة قابعة فى دفء صدر بثينة ، وتبادلت جمالات وزوجها نظرات الدهشة والتساؤل . . ترى هل يدركان ؟

* * *

هما فى الخارج الآن . . حمدى وجمالات العزيزة المتبقية لى نجلاء ومعى كظلى . . يؤثران التنزه والتعرف على معالم بلدى . . بلد الأجداد . . وكمال هناك بعيد ساخط متململ . . الوحيدة التى تسبر أغوار الكون . . أنا الشاحبة صاحبة الأسرار والتطلعات ، لقد حان الوقت يانجلاء كى نختلس معاً لحظات فى الحجرة البعيدة فى ركن الحديقة . .

تطلعت إليها عينا نجلاء بفضول وانشراح ، ومدت لها يداً كيد لعبتها وقالت بتلعثم :

– ألن أشاهد حفلة الليلة ياخالة بثينة ؟

قرأت كثيراً ياعزيزتى نجلاء فى عالم الأرواح الذى يستهوينى ويشدنى ، ففيه أجد كل ماأفتقده فى هذه الحياة التافهة . . فى مقدورى أن أعرف كل مايخبئه الغيب ! ربما لغياب كمال فضائل فيما أسعى إليه فقد أتاح لى فى مدة أن ألم بالكثير مما استغلق على فهمه فيما مضى . . .

– نعم يا حبيبتى وسأصنع بعض الشطائر ، وأختار لك أجمل عروسة لتصحبيها معك

وتقافزت نجلاء كأرنب مذعور وسرعان ما احتوتهما الحجرة النائية فى حديقة البيت

– أتصدق ياحمدى أن كل ماكنت أختزنه من أوهام ومخاوف فى مخيلتى قد بخر الآن تماماً ؟ لم تَعُد بثينة الحقيقة حينما أعلنتنا فى ثورة صادقة أننا احتللنا بيتها ! وأصبحنا أصحاب صفقة رابحة تماماً ، فالتكاليف رمزية وأثاث البيت مدخر هناك فى بلدتنا الأولى ، أما العزيزة نجلاء فقد استرحنا من بكائها ومشاغباتها . . نعم لقد أتحفتك المقادير بكل ما يزيح عنك أعباء المسئوليات أية مسئوليات . . ربما أرادت الطبيعة أن تضفى عليك أثواب الهدوء والراحة المقرورة . . لأهدأ بدورى ولكن . . هل فقدنا ضمائرنا تماماً ؟ ألم يعد هناك ولو التزر اليسير مما يدفعنا كى نقدم بعض الخدمات نظير الاقامة ؟ العمل بديع ويدفعنى دفعا كى أجود فى إنتاجى . . ترى ماذا سيحدث ؟ لقد حدث بالفعل فبرقيته تنبئ عما سينفذه . . هل أشرك من تقف بجانبى الآن فى الإسهام بإيجاد حل ؟

– مالك يا حمدى ترنو إلى وكأنك ترانى لأول مرة ؟

نعم ياعزيزتى جمالات . كل يوم أمنى نفسى بأننى قادر على تغييرك كما أريد . لكن هيهات !

– مارأيك فى معالم البلدة . . هذه الحديقة الواسعة التى تحوطها التماثيل الخانعة ألا توحى لك بشىء ؟ نعم ياعزيزتى . لو أننى قبعت بجانب هذه التماثيل مالاحظ أى واحد من المشاهدين أن عدد الخانعين قد ازداد واحداً !

* * *

ربما لو امتد العمر بنجلاء بضع سنوات لا ستطاعت – بعد أن تركز كل خطوط ذاكرتها – فتنحصر فى الآنى . . داخل الحجرة التى فى ركن الحديقة . . بيانو قديم وجهاز يصدر منه أنغام حالمة جميلة وهادئة ، والخالة بثينة من شدة شحوب لونها تتسع عيناها الداكنتان ، وتتحرك شفتاها كأنها أطراف أوراق الورد ، وتتمتم بكلمات وأحرف من الصعب تمييز معناها !

– من الذى سينتصر فى الحرب ؟ وهل سنرجع لبور سعيد . . وهذا البيت . . من الذى سيحتله . . وإذا ماتأزمت الأمور فكيف يكون الحل بالمهادنة أم بالهجوم ؟

– خالة بثينة لقد مللت هذا الظلام . . الأضواء زرقاء معتمة ولاأرى أحداً ممن تناديهم لماذا لا تجاوبنى الخالة بثينة ؟ إننى ألتهم بعض قطع الحلوى حتى أتيت على آخرها والعروس كادت تتحطم لقد مللتها هى الأخرى . . قالت لى الخاله بثينة : أطلق عليها اسم « أمل » مامعنى هذا الاسم ؟ لماذا لاتدعنى أنا أختار ما أشاء من الأسماء ؟ أليست دميتى ؟ ماما جمالات أفتقدها كذلك أبى الحبيب . . ولكن هذه السيدة بدأت أخشاها متى أنمو وتصبح لدى أثواب

طويلة ممشوقة وأرتدى الأحذية ذات الكعوب العالية ، وأخرج لأتنزه . . أف بدأت أكره هذا الجو الخانق !

– خالة بثينة أريد أن أخرج من هذه الحجرة اللعين لماذا لا تردين على ؟

وفجأة انقطعت الموسيقى وضاقت حدقتا عينى بثينة ، وبدأ محياها يميل للإشراق والتفتت بكليتها إلى نجلاء . . هكذا شاءت الأقدار يانجلاء أن تكونى كبش الفداء .

وامتدت يدا بثينة بحنو تدفع نجلاء إلى خارج الحجرة !

* * *

ماكان متوقعاً . حدث . . هاهو ذا كمال . . زادته شمس الصحراء سمرة وبرزت عضلاته . . لولا بعض الكآبة ، شابت قسماته لقالت : إنه راجع ممسك الذئب من ذيله . . !

الآن نستطيع معاً . . أنت وأنا أن نقف جبهة واحدة أمام حمدى وجمالات . . أما الرؤساء فليحصدوا ثمرة جهدهم . . اكتظاظ بيت بأسرتين . . لاتجانس ولاتفاهم بينهما بحجة تسيير أمور العمل وأزمة المساكن أولاً وأخيراً .

– مرحباً بك ياكمال . .

لقد ازداد شحوبك يابثينتى العزيزة ، ألم تكونى أحق منى بالسفر إلى الصحراء الواسعة ربما لونتك الطبيعة وأضفت عليك الكثير مما تفتقدينه . . وربما أيضا أخصبت . .

هل ستقفين بجانبى حقاً مؤازرة مساندة أمام هؤلاء القوم ؟ لن تقتلعنى أية قوة غاشمة من بيتنا يا بثينة . . فى هذه الآونة . . أحس وأدرك احتياجى

إليك . . مدى لى يدك شاحبة أو غير شاحبة . . المهم . . أن نكون ونبقى معاً . . دائماً . . لولا هذه البنية وتعلقك الغريب بها لاستحال البيت جحيماً . .

أربعة أفراد . . اثنان منهم يحلقان ذقنيهما فى وقت واحد ! يريدان الاستحمام وخلافه فى وقت واحد ! والمرأتان . . كل منهما تريد صنفاً من الطعام لا تفضله الأخرى . . واحدة تريد التفتيش خارج البيت وتملأ رئتيها بهواء طلق متجدد ، وأخرى تقبع فى حجرة نائية تعايش أشباحاً على الورق . . وأرواحاً فى سماوات أعلى . . يجب أن نضع حداً لكل ذلك . . ألم يحن الوقت كى أرد التحية ؟

-مرحباً بك أنت يا بثينة كيف حالك و . . حالهم ؟

هذه التنهيدة التى لم أستطع كبح جماحها ربما تغنى عن الشرح . . أو الإجابة على سؤالك ياكمال . . فقدت أهلى وعشيرتى فى بور سعيد ، واستحالت الأبنية إلى حيطان متداعية وتجففت الحدائق حتى الأسماك سممتها المياه بعد أن لوثها الأعداء ! لابد من زمن يمر بنا كى نبنى من جديد . . أما هنا . . فى بيتى الذى ورثته عن جدتى محط آمالى فكيف أتخيل غيرى يحتل كل أركانه وفى كل ركن ذكرى وحياة ؟ نعم ياكمال . . لن أتخلى عنكما أنت وبيتى . . هناك أكثر من وسيلة لم تبق عندى سوى ورقة واحدة وأظنها رابحة

* * *

انفتحت البوابة على مصراعيها ، واقتحمت سيارة لورى مدخل الحديقة ، وفى دقائق كان الأثاث يحتل أرضية الحديقة ، وفى ركن ناء عند الحجرة ذات الأسرار همست أرواح لعلها شريرة أو خيرة . . يستوى الأمر . . همست مرددة هناك . . احتلال . . احتلال . . لعلها أرواح أسرة بثينة جاءتها من بور سعيد

أو لعلها أرواح من بلاد بعيدة وأزمنة سحيقة تنبأت بما سيحدث . .

حمدى يدعى أنه لم يكن يعرف الميعاد . . ميعاد إحضار أثاث بيته . . وجمالات تعلق على ذلك بابتسامة وردية :

– لم نفعل إلا ماأمرنا به !

ووسط الضوضاء ظهرت رأسا كمال وبثينة متخبطتين حانقتين مهزوزتين :

– أهكذا بتلك السرعة ؟

واتسعت خطوات كمال وتزايدت دقات قلب بثينة ، وساد البيت العتيد قلق رددت صداه الجدران والأسقف وخبط كمال كفاً بكف :

– لا يمكن السكوت على تلك الحالة . . ليذهب أصحاب الشركة إلى الجحيم . . لن أنتقل من بيتى . . لن تخرج قطعة أثاث واحدة من بابى . . مارأيك يا بثينة ؟ مارأيك ؟

وتعالى صوته واندفع رذاذ اللعاب من بين شفتيه . . لك الله ياكمال ! أتظننى لاأقوم بدور فعال ؟ من أدراك ؟ ياحبيبى يازوجى العزيز ! إنى مجندة ومسلحة بأرواح تقبع هناك فى الحجرة النائية سمعت أصواتها معى الصغيرة نجلاء . . لقتنى الأرواح الكثير ! ألم أقل لك . إننى أملك الورقة الرابحة !

أحاط حمدى وجمالات بالسيارة اللورى وفى تخيل سريع وجدا أن الأثاث مناسب جداً فى ذلك البيت الذى عاشراه أكثر من شهر . . يالها من أقدار ! . ومأجملكم أيها الرؤساء الأعزاء ! .

وتبادلا نظرات متواطئة . . لك الله ياحمدى ! أنت عظيم حقاً رغماً عن قماءتك . . وأنت أيضاً ياجمالات . . لولا رسوخ أقدامك وضعف حساسيتك

ولا أريد أن أقول صفاقتك ما تم شيء على الإطلاق . . يبدو أننا معاً نكون طاقة لا بأس بها من حيث القوة والتمكن

حسن . . كان بودنا يانجلاء ياغالية أن تكون لك حجرة خاصة ولكن ليس كل مايتمناه المرء يدركه !

* * *

لابد من المواجهة ياسيد حمدى . . نحن معاً الآن فى الشرفة نحتسى فناجين القهوة من صنع زوجتى ومن أموالنا . . لترتاح أفكارنا ، ومنها نستمد ماسنعزم عليه ، لقد تجرعت أكثر من رشفة إليك الآن . .

– ياسيد حمدى لعلك أدركت تماماً مانويته . . لن أفرط فى وظيفتى مهما كانت العواقب ثم بيتنا . . أعنى بيت زوجتى ، لن نتحرك منه حتى يؤوينا التراب ! . ماذا قلت ؟

ورمى حمدى بنظرة ناحية الشجرة الكبيرة التى تفصل بين البيت وبيت الجيران ، ومد يده يقطع ورقة خضراء لامعة وابتسامة تتكون على زاوية فمه . .

– نحن مسيرون ياسيد كمال ، ما ذنبى أو ذنب زوجتى والعزيزة نجلاء ؟ ومن أدرانا بما حدث لبيتنا القديم بعد أن فقدناه هو الآخر ، ربما احتله آخرون والمسألة عادية جداً .

فى نظرى . . كل منا يؤدى دوره لاغابن ولا مغبون . . لماذا ينحو تفكيرك هذا النحو الحساس القاسى بحيث أصبحنا وكأننا مغتالون !

وحدد كمال إليه البصر . . إنك تتحدث يازميلى وكأنك حقاً صاحب البيت ! الثبات ورسوخ القدم والاعتداد وأخيراً عتادك أو أثاث بيتك . . ماذا

عندى لأقوله ؟ أقول مثلاً :

– مارأيك فى أثاث بيتى . . الأثاث الأصلى . الشرعى ؟

وفرك حمدى الورقة الخضراء بين أصابعه :

– لابد من تكدسه . . لنتزل لك عن حجرة . . لست أجد حلاً أفضل من ذلك !

لم أمارس الرياضة عفواً . . عندى من العضلات ما يكفى أن أسحق عشرة من أمثالك تماماً كما حولت الورقة الخضراء إلى فتات ! وأملك أيضا طاقة عصبية تحيلك إلى أشلاء ! . لن تستغرق العملية أكثر من دقائق !

– ولم هذه التضحية ياسيد حمدى ؟ ألا ترى أنك ستفرط فى الكثير ؟

واعتدل حمدى بكرسيه قليلاً متململاً وقال فى صوت تشوبه بعض الرجفة :

– نحن زميلان وأخوان بحكم المعاشرة ، ولابد لكل طرف منا أن يحنى هامته لنعاون فى تيسير الأمور !

وفجأة توسطتهما جمالات ورنت إلى حمدى بنظرة حادة تومئ بالكثير ، وهز حمدى ساقه بشىء من العصبية وقال محاولاً التظرف :

– أتسمح لى ببضع دقائق ياسيد كمال ؟

لك الله ياجمالات ! كدنا نصل إلى حل مع هذا الرياضى العنيد ، ومع ذلك فلا بأس من استراحة قصيرة يستعيد كل منا فيها بعض هدوئه !

– ماذا عندك ياجمالات ؟

ورمقته من تحت كتفها . . أحيانا أتخيل نفسى امرأة طليقاً وكأنه لا وجود

لك ، وأحياناً أحس بأنه لاغنى لى عنك ، وخاصة فى ذلك الظرف

– نجلاء تقول كلاماً غريبا . .

– «طفلة» فى سن دقيق . . لا تعى تماماً الأشياء .

– بل على العكس . وخاصة عندما أربط بين ما تقوله وما أسمعه من الآخرين .

– أفصحى بالله عليك

– يبدو أنها تشارك بطريق غير مباشر فى تحضير الأرواح !

ولأول مرة منذ زمان بعيد يعلو صوتك هكذا ياحمدى :

– هل جننت يا امرأة ؟

– على العكس تماماً ويمكنك أن تكشف ذلك بنفسك . .

– كيف ؟ هل تريدينى أن أصدق كل كلمة تتفوهين بها حتى لو كانت أراجيف ؟

– ليست بأراجيف . . بل حقائق ، والمسألة بسيطة ، سنشارك نحن أيضاً فى تحضير الأرواح وخبط حمدى كفاً بكف وهمهم :

– كل يوم يمضى بنا يؤكد لى أننا فى طريقنا إلى الجنون . . جنون حقيق . . !

* * *

حان الوقت ياحمدى كى نخرج من هذا البيت المشحون ، لاتجزع ، فخروجنا سيكون لفترة نستطيع فى أثنائها أن نستجمع بعض ما فقدناه من استهلاك عصبى ونفسىّ وجسمانى ، وإن تهاونا فى بادئ الأمر فسيضيع كل

شيء . . كل شيء !

أحيانا ياجمالات تنتابنى حالات يقظة . . يقظة ضمير . فأستريح إلى حين ، أو لعله تغابى وآثر الغفلة عن مواجهة الحقائق . . الآن أجتاز هذه المرحلة الدقيقة . . الدقيقة جدًّا فحياتنا على كف عفريت . . بدأت أضع قدمى على أولى عتبات مستقبل زاهر مستقر وأرض صلبة ورزق موفور ثم رضا الرؤساء وبيت فيه كل ما نصبو إليه ولكنّ . . المالكين الحقيقيين معنا يساومونا . .لا بل يهددوننا . . ما العمل ؟ بعد أن رشفنا أولى رشفات العسل . . هل ندير جلودنا للنحل لكى نستروح آلام القرص ؟ ماذا أصنع ياجمالات وضميرى يستيقظ من غفوته ؟ أنت بجبروتك وصلافتك تقسمين وقتك بين راحة البيت واستراوح النسمات خارج الدار ، لكنك وفى صلب الموضوع تصوبين المبضع على موطن الألم . . إن تهاونًا فى بادئ الأمر سيضيع كل شيء . . كل شيء . !

* * *

تعالَىْ تعالى يانجلائى العزيزة . . لقد عرفت وألمت بالأحاديث التى دارت بين والدك حمدى وزوجى كمال . . يبدو أن الاحتلال قد وطد أركانه ، ولكن هل نسوا وجودى ؟ إنى مسلحة ومجندة ومشحونة أيضاً بانفعالات جياشة وآلام مروعة لم تزلها الأيام ! كيف أنسى موت أهلى وأسرتى برصاص وقنابل الأعداء ؟ بعد أن لذت ببيتى هذا كى يحمينى وينسينى – إلى حين – الآلام المروعة التى انتابتنى . . لقد ساد الاحتلال هل يعقل هذا ؟ كيف أسمح به ؟

نظرت نجلاء بدهشة وخوف إلى الحالة بثينة ، وعاودتها أفكار وخيالات لم تنمح تماماً من مخيلتها وسألتها :

— هل سنزور حجرة الحديقة مرة أخرى ياخالة بثينة ؟

ما أحلاك يانجلاء وأنت أمامى ومعى وسط الحديقة المزدهرة وأوراق الأشجار تطبع بأضواء الشمس بصمات خفيفة على وجهك الطفلى الحالم ! لم لا تكونين ابنتى ؟ ألست أحق من والدتك جمالات ؟ إنى أطلعك على عالم المستقبل ، وألقنك الكثير مما تعلمته فى حياتى السابقة واللاحقة .

— تعالى ياحلوتى . فى هذه المرة سنغير البرنامج ، سنلاقى أصحاب الأصوات الحقيقيين .

أين ياخالة بثينة ؟

وأتى صوت بثينة كحفيف الشجر :

— فى الخارج . . فى أطراف البلدة حيث الفضاء والسماء والأرض منبسطة بجمالها وجلالها ومعى لك أكثر من دمية ستنال إعجابك . . أيرضيك ذلك ؟

وجفلت نجلاء ودق قلبها ، وقالت كأرنب مذعور :

— ألن يجيىء معنا بابا وماما ؟

وابعث صوت بثينة من الأعماق :

— بالتأكيد ياحبيبتى سنلاقيهما هناك . . إنهما فى انتظارنا .

* * *

لم ترد علىّ ياحمدى برغم طرق لموضوع حساس أصبح حاسماً بالنسبة لنا جميعاً ؛ ففيه حياتنا أو شرودنا . . لم يبق إلا الصمود وكلمة حقيقية راسخة منك . . أراك شارداً كعهدى بك . . أكاد أجزم بأن هناك الكثير مما يدور فى ذهنك لعل فيه الإجابة عما يدور فى ذهنى ، هاهى ذى الأسواق على الجانبين

الباعة يرمقوننا بدهشة وربما باستنكار . . فنحن لا نشترى شيئاً إلا مع بثينة وكمال ، لكننا ننطلق على سجيتنا ؛ لأن هناك من ينوب عنا فى كل شىء برغم مضى أكثر من شهر ونحن نقيم فى هذه البلدة إلا أن ناسها يستنكرون وجودنا . . لقد جُلْنا فى كل المناطق حتى النهاية التى يعمل فيها حمدى حيث المصنع الكبير بمعداته وآلاته . . هنا دنيا جديدة وأناس عريقون صامدون . . لم لا نكون منهم ؟ ولكن . . لن ندفع شيئاً ، ولن نضحى بشىء ؛ فقد سبقنا الأهل والعشيرة . . ضحوا بالكثير . . آن لنا أن نجمع ما بعثره الأولون . . لابد أن أعاود السؤال مرة أخرى . . إنى لا أيئس أبداً :

– خروجنا معاً الآن ياحمدى . . ضرورة كما سبق وقلت لك . . لقد قطعنا رحلة ليست بالقصيرة . . ربما تعبت قدماى . . لكنى لا أكلّ أبداً . . وقد حان الوقت كى نتبادل حديثاً هاما . . فيه إرساء قواعد مستقبلنا ، هلا عاونتنى ياحمدى فى الإجابة ! . ترى ألم يحن الوقت بعد ؟

لقد أجبت على سؤالك بأكثر من إجابة ، بل ولن أتجاوز الحقيقة لو قلت : إننى أجبت على أسئلة لم تلق على بعد . . أتفهمينى ؟ أيرضيك أن أجاوبك بصوت مسموع . . حسن

– إنى لست بغافل ياجمالات . . بل إنى لا أنام الليل ولا أنقطع عن التفكير نهاراً . . وصراع هائل يدور فى ذهنى ونفسى ولامناص من مواجهة الواقع !

وأشار طفل – يعبر الطريق – إليهما ضاحكاً . . لمحته جمالات ولم تبال وأجابت :

– هذا ماكنت أخشاه ياحمدى . . أن تتراجع مع أن الموقف بين أيدينا

وتحت أقدامنا ، إقامتنا معترف بها من رؤساء يملكون كل شيء . . القوة والمال والسلطة . . وأصحاب المال الحقيقيون يتخبطون . . كمال وحده يحتج . . لكن أنسيت أنه رجل رياضي ؟سيذعن في النهاية ، إني واثقة من ذلك . . أما بثينة فتعلقة جدًّا بنجلاء وتزيح عن كاهلنا الكثير وكأننا عروسان في بداية شهر عسلها . . مد لي يدك ياحمدي ، لم تبق أمامنا سوى خطوة واحدة . .

هدئي التعب ياجمالات ، أريد أن أستكين على هذا المقعد في ذلك الكازينو اللطيف مع أن الساقي يشيح عنا بوجهه إلا أنني مصر على أن أستريح .

– تعالي معي ياجمالات ، سنستأنف حديثنا ونحن مرتاحون . . مارأيك ؟

* * *

الشارع طويل فاحم السواد ينساب كثعبان مرتاح بعد أكلة شهية مشبعة ، ورنت بثينة إلى نجلاء وقالت :

– انظري إلى هذا الفضاء ياحبيبتي ماذا ترين ؟

وأمسكت نجلاء بدميتها الجديدة الشقراء وقالت وهي تداعب شعرها :

– إنني لا أرى سوى دميتي الجديدة . !

وتنهدت بثينة . . لا أدري في الواقع من منا ياكمال العقيم ؟ لقد قالوا لنا : إن الأيام كفيلة بضمان الإخصاب . . المهم . . الصبر . . ولكن لا تيئسوا من رحمة الله . . وأنت الآن يانجلاء بين يدي . . هل أضمن غدي ؟ ينقصك الكثير . . الكثير جدًّا يانجلاء مازلت تتعثرين في خطوك وكلمتك . . لاترين أناساً عاشرتهم طوال حياتي ولاتسمعين أصواتهم برغم أن أصداء أصواتهم صكت سمعك . . تُرى ماالحل ؟

– هل تعبت من السير يانجلاء ؟

– نعم ياخالة بثينة . . أريد أن أرى ماما وبابا . . دميتى الجديدة جميلة جدًّا . .

أليس كذلك ؟

– نحن فى طريقنا إليهما . .

وأشارت نجلاء بإصبعها على مدى امتداد الطريق

– الطريق طويل جدًّا لا أرى له نهاية .

– سنستريح قليلاً وبعد ذلك ستجدين الطريق قصيراً سهلاً مبسطاً . . عاونينى يانجلاء !

* * *

أمسك حمدى بيد زوجته جمالات . . لم أشعر باحتياجى وتمسكى بك قدر اليوم معاً سنكون طاقة أرجو أن تؤتى ثمارها . . الوقت معنا والموقف بين أيدينا وتحت أقدامنا رنا إليهما الساق باستنكار وقال وابتسامة تشع من بين شفتيه :

– الحساب على الحساب ؟

هذا هو ما ينغصنى أيها المتطفل ، ولكن إن لم نتسلح بالصفاقة فكيف نقطع باقى الأشواط ؟

– بل على استعداد للدفع فوراً . . هاك والباقى لك . .

ربما تتغير الحال غداً ، ونجد أننا لسنا فى حاجة لإثبات وجودنا . . المهم أن جمالات بجانبى وفى طريقنا إلى بيتنا الجديد ، فما بال الأسواق تتخذ شكلاً جديداً وبصمات حديثة تحيلها إلى دنيا مشرقة . . لقد ساد أثاثنا ، فى بيت كمال

ترعرع وتفرع ، وتكدس أناسهم فى حجرة نائية سيتغير كل شىء . . كل شىء . !

* * *

تماماً – كما حدست – الطريق طويل والشمس تحيينا من وقت لآخر ، لكنها الآن تلوح لنا بمنديل أرجوانى تودعنا الوداع الأخير ! . وبصيص من ضوء أزرق سينير ذلك الشارع المخيف الذى ينساب كما يشتهى وسط صحراء واسعة لولا وجود الخالة بثينة معى . . لقفزت دميتى رعباً وانخلع قلبى من صدرى هلعاً ! . لكنها تصحبنى لأشاهد فى النهاية بابا وماما . . ترى ؟ أسيطول بنا الوقت أم أننا فى طريقنا لنهاية المطاف ؟ إنى أحب الخالة بثينة فهى تهدى لى من حين لآخر دمية رائعة الحسن . . لقد أنستنى ماما وبابا إلى حين فأنا لاأراهما إلا قبل النوم بقليل . .

– خالة بثينة . . دميتى تشكو من العطش كيف أسقيها ؟

الله وحده يابنيتى يعلم متى سترتوى لم تبق إلا عزيمتى . . أناشدها ألاتهن أصوات الأموات تصك سمعى . . تحثنى أن أواصل السير على ألا أفارق نجلاء ابنة الأدعياء ، ترى هل أعد نجلاء منهم أو منى ؟

يالها من حيرة ! أين نهاية المطاف ؟ لقد بدأ الليل يرخى أولى أستاره وذرات رمال الصحراء أخذت تهمهم وتمتزج برطوبة المساء . . الأصوات تحوطنى وجسمى يعتوره الكلل . . مدنى بالقوة ياربى ، وأعنى على أن أواصل بقية الطريق .

* * *

اجتازت جمالات البوابة وتبعها حمدى راميين بأنظارهما على الجانبين . .

الحديقة منسقة مزدهرة ، والبيت شامخ راسخ عتيد ، واستروحت جمالات نسمة أنعشت صدرها ، وحينما احتوتهما الدار فوجئا بكمال وبجانبه أثقال حديدية يرنو إليهما ، ويبتسم ، ثم بادرهما قائلاً :

– أرجو أن تكونا قد استمتعتما بنزهة خلوية لطيفة . .

وتنفست جمالات الصعداء وقالت :

– أين السيدة بثينة ونجلاء .

رمى كمال بصره ناحية الحجرة النائية فى آخر الدار ، وشاهد أثاثه مكدساً مضموماً كفقير عار يلوذ بالجدار من قارص برد الشتاء . قال بنغمة لم ترتح لها أذن جمالات :

– خرجت بثينة من ساعات طويلة ، أما عن نجلاء فلم أرها شخصيًّا . . ربما تكون قد صحبتها معها . . لست مسئولاً على أية حال .

معاً سنكون طاقة أرجو أن تؤتى ثمرها . الوقت معنا والموقف بين أيدينا وتحت أقدامنا هذا ما رددته أكثر من مرة . وماعشت فيه أكثر من مرة ، وشاركتنى فيه جمالات . . لابد أن العته قد أصابنا معاً . . ربما ابتليت بالعمى كدأبى دائماً مع هذه الزوجة الرعناء ولكن . . جمالات المتيقظة دائماً الغالبة فى معظم الأحيان كيف تناست ابنتنا ؟ . . من منا الملوم ؟ لقد حذرتنى أكثر من مرة بأن هناك عالماً خفياً تعيشه نجلاء لقنت فيه الكثير ، عالماً ليس من صنعنا ، عالماً غريباً غامضاً غير مرئى . . لم يعد لدينا وقت . . ليذهب البيت بأصحابه إلى الجحيم . . ليحرق الأثاث أو يبدد ! لم أعد أبالى إلا بنجلاء . . نجلاء العزيزة

لعل صوتى العالى هو الذى حول جمالات وكمالاً إلى مخلوقين مرتاعين مرتجفين .

– أريد ابنتى نجلاء فى التو والساعة أنتما مسئولان عنها . . أنتما الاثنين !

وأشار حمدى بعصبية ناحية كمال ثم مد إصبعه وكأنه سيفقأ عينه :

– حياتك فى كفة وحياة ابنتى فى كفة أخرى !

لأول مرة أراك إنساناً حقيقيًّا تعرف مالك وما عليك ياسيد حمدى . . لقد انخرس لسان امرأتك وتقدمت أنت الصفوف . . ترى ماذا دهاك يابثينة ؟ لقد شاهدت فى عينيك قبل خروجك عزماً صادقاً وإصراراً مخططاً والطفلة معك مسوقة ممغنطة ترى ما الحكاية ؟ كيف أقنع هذا الأب الثائر ؟

– لنصبر قليلاً ياسيد حمدى لعلها فى طريقها إلينا .

يا ابنتى ياحبيبتى نجلاء كيف أكبت أمومتى ؟ أنا الملومة . . الملومة ، قلبى يتوجع يانجلاء . . ويئن ، لعنة الله على هذه البلدة والوظيفة والبيت وأهل الدار . . أفتديك بروحى يانجلاء . . حمدى ، امحنى واعف عنى . لقد كنت – بلا وعى – ضالعة مع هؤلاء الناس فى ضياع ابنتنا منا . . ترى ما الحل ؟

* * *

أمسك حمدى رأسه بين يديه . . آن الأوان كى أواجه نفسى والحقائق . ، احتللت أرضاً ليست بأرضى ، وأقمت فى بيت من صنع غيرى ورثه عن ذوى قرابته وتسلمت وظيفة جديدة . . على كل ذلك بأمر من الرؤساء . . مُسيّر أنا لاشك فى ذلك أؤدى واجبى بحذافيره . . لكنى عندما ينحسر الموقف عن المساومة سأنحى كل ذلك جانباً وأواجه الموقف . بمفردى دون اللجوء أو التمحك بالرؤساء . . ابنتى فى طريقها للضياع منى . . من يدرينى إن كان فى مقدورى أن

أنجبت غيرها وإن استطعت ورزقت غيرها ؟ هل يعوضنى الإنتاج الجديد عن فقدانها ؟ وهذه الأم المكلومة التى عصرها الحزن وأحالها إلى هشيم تتنقله ذرات الهواء ؛ لتقذف به فى أية بقعة من بقاع العالم ؛ لتنتشر أوجاع الثكالى فى كل بقاع الأرض . !

أرنو إليك ياجمالات وأرى دموعاً فى صدرك ونواحاً فى حناياك ، ومازلت صامدة راكدة كالحياة التى تحمل فى طياتها جراثيم المرض والدمار . . أين جبروتك وغطرستك وصفاقتك . . .

أتستكين هكذا لأننا فزنا بمتاع يزول بزوالنا من الأرض وابنتنا التى تحمل بين ذراعيها الصغيرتين إشراقة الغد ندعها تفلت من بين أيدينا لننعم بمستقبل جاف عقيم ؟

ها هما قدماى تحثانى على السير ، ولكن إلى أين ؟ إلى أين ؟

– أين نبحث عنها ياجمالات ؟ عاونينى . . مدى لى يدك .

وأنت ياسيد كمال دع حمل الأثقال . . نحن واثقون ولايعتورنا شك فى قدرتك الخارقة على تحمل الكثير من الأثقال . . مد لنا يدك . . سنترك لك كل شىء . . الوظيفة . . البيت . . الأثاث . . حتى أرواحنا . . لكن ابنتنا . . ابنتنا أيعقل أن يغلف البكاء صوت زوجى حمدى ؟ أيعقل أن يتحول هذا الكائن إلى جرذ قمىء يلوذ بالجدار خوفاً وعاراً ؟ اللحظة حاسمة لاشك فى ذلك ، ولكن من أين نبدأ البحث . . بثينة برغم انطوائها وشحوب لونها صاحبة الموقف تهيمن على كل شىء من ربوة مكان مجهول . . كم سيمضى من الوقت حتى نهتدى إلى

أول خيوط الحقيقة ؟ وكيف نفكر بروية وتمعن والقلب يضطرب والنفس جياشة واللوعة تعصرنا جميعاً ؟ من أين نبدأ ! من أين ؟

* * *

رمت جمالات ببصرها حواليها . . إن الأشهر الماضية طوتها كورقة خفيفة تناقلتها الأجواء كيفما اتفق ، بهرتها جدة البلدة والحدائق والطرقات الجديدة والأناس الأقوياء المستبشرون . .

وانجرفت طفلتها نجلاء مع تيار بثينة العاتي الفياض وانساقتا معاً في عالم اللاوعي وتحدثتا عن أصوات مسموعة غير مرئية وأموات أحياء وموسيقى شاحبة ميتة ، وأخيرا خرجتا من الدار كلها ابتلعها الخلاء . . البلدة واسعة أطرافها نائية ، سحابها كثيف ، أمطارها شحيحة ، والرؤساء هناك يهيمنون على كل شيء . . يسيِّرون الموظفين على حسب هواهم : فريق يفارق دياره ، وفريق يحتلها . . يستوى الأمر عندهم !

ولكن لا ، لن نفرط في نجلاء . خرج باريس يبحث عن أبيه الحقيقي وأخذ فرعون موسى بين أحضانه وهو لا يدرى بأن نهايته ستكون على يديه ! سنبحث . . سنعزف عن الطعام والشراب وراحة البدن والبال . . لابد أن تنال جزاء إهمالنا وغفلتنا ! بهرتنا القوة واستتباب الأمن . . لم يعد لدينا وقت . . لم يعد لدينا وقت .

مد حمدى يده لجمالات وخرجا معاً وسمعها كمال يتحدثان من باطنها ، سنتركك لدارك تنعم بها أبد الدهر ، سنكدس نحن أثاثنا ربما تحيا أمواتكم وتنقلب موسيقاكم الشاحبة إلى معزوفات حماسية متدفقة بالحياة ! لست

أدرى : أأناصركم أم أعاديكم ؟ كنا فى حالنا راضين بعقمنا مؤملين – بثينة وأنا – أن الأيام لن تخذلنا ومادام هناك غد فلامانع من الأمل .

ما أجمل أمسنا ! هل فى استطاعتنا أن نبثه إشراقة جديدة ليتحول إلى غد مستقر منير ؟

* * *

طال بكاء نجلاء . . احتواها الظلام بين طياته ، حلمت أكثر من مرة أن أسداً يحوم حولها يكشر عن أنيابه ، لكن فى اللحظة الدقيقة التى تمتد فيها يد قوية مفتولة العضلات . . يد مجهولة . . تستيقظ من نومها . . الآن تحول الأسد إلى خالة بثينة ، النار تشع من عينيها وأظفار أصابع يديها تطول كالمخالب ، والجوع ينهش أمعاء نجلاء وحنينها إلى أبويها يكاد يصرعها . . لماذا تركتمانى ؟ لماذا أهملتمانى ؟

نجلاء أيتها الطفلة البريئة . . إننى أنفذ تعاليم الرؤساء ، كاد سيدنا إبراهيم أن يفتدى ابنه إسماعيل . . ومن أنا إلا كائنة حية تخضع لقوانين الطبيعة ؟ هذه الربوة العالية التى ينبت فيها بعض العشب ستعانقك يانجلاء . . تعالى معى . . تعالى معى ياحبيبتى . .

– خذى دميتى ياخالة بثينة . . خذيها واتركينى أرجع لدارى . .

واتسعت حدقتا بثينة ، وابتسمت ابتسامة المنتصر فى حرب طال أوارها . .

– دميتك لاتخرج أصواتاً . . تعالى يانجلاء . تعالى ، إن صوتك عذب ينزل برداً وسلاماً على أمواتنا الأحياء !

وامتدت يد بثينة . . وقد خالتها نجلاء حبالاً طويلة مجدولة بثعابين ملساء

تتلوى . تقهقرت بظهرها رويداً رويداً والثعابين تلتف وتطول ، واستمرت اللعبة وصدر نجلاء الهش يعلو ويهبط ، وإذا بها تستند على حائط انبثق فجأة فى هذا الخلاء اللعين كان الجدار ليناً رحباً خافقاً . . التفت يدا جمالات حول الصغيرة وبسرعة كلمعان الشهب التقطتها من وسط الطريق . . وتسمرت قدما بثينة على أسفلت الطريق . . كيف تحول كيان نجلاء إلى ثلاثة كائنات ؟ كيف تحركت ثلاث رءوس فى سرعة رهيبة ، واختفت فى سرعة أكثر غرابة ماذا أقول للأموات ؟ هل أقول : إننى رجعت لديارى وتمسكت بعقمى وهذه الربوة أأتركها هكذا خاوية ؟ لا بد من الفداء . . !

ما أجمل الصعود رويداً رويداً . . الدنيا من حولى منبسطة مريحة أمخر عبابها وكأننى ماردة ترى كيف أجد أرضها بعد أن أقذف بنفسى من تلك الربوة ؟ أيعقل أننى سأنجب نجلاء أخرى ؟ بعد هذه السنوات العجاف ؟

الأصوات تناديني . . ستجدين عندنا كل ماتشتهين . . دعى كمالاً فسيختار له زوجة ولوداً . . ها هى ذى قدمى تسبق الأخرى أرجو أن تثبت جيداً ، سألقى نظرة سريعة شاملة على الفضاء . . على الكون برمته . .

الرءوس الثلاثة . . حمدى . . جمالات . . نجلاء تحولت إلى نقاط أو لعلها دبابيس تتحرك . !

ماذا أرى ؟ من هذا ؟ وجه مألوف وقامة أميزها من بين عشرات . . ما الذى أتى به فى هذه اللحظة الدقيقة ؟ لقد نسيتك فى غمرة أحداثى . . الأصوات تناديني ياكمال وتلح على . . الأموات لهم حق علينا . . لولاهم . . ماقذفت بنا الطبيعة بين براثنها ، مالك تجرى وكأن وحوشاً تطاردك . . هاهى

ذى قدمى الأخرى تلحق بالأولى ، كدت أتثبت تماماً على الربوة هذا هو الوضع الملائم للإشراف على كل شىء . . ما أجمل الدنيا ! يقال : إننا سنستقبلها مرة أخرى ومن أدرانا ربما نلتقى نحن والفراعنة . . ونتبادل أحاديث وأخباراً عبرت مر السنين . .

هكذا سريعا ياكمال تقطع على أفكارا استمدها من الطبيعة وماوراءها لن أغمطك حقك لقد افتقدتك ما فى ذلك من شك . . ولكن .

* * *

أيتها العزيزة بثينة . . فى هذه اللحظة الدقيقة وأنت ترتفعين ثم تتثبتين فوق الربوة كأرسخ تمثال صلب القاعدة . . أدرك تماماً أن هذا هو وضعك الطبيعى . . انصرفت عنك أعواماً بأكملها ، شغلتنى الوظيفة وبهرتنى الرياضة والعناية الفائقة بتربية عضلاتى ونسيت أو لعلنى تناسيت أن هناك من ينتظر إنجاباً من صلبى ومن دمك . . الآن فقط . . هذه اللحظة بعينها أريدك يابثينة وأحتاج لرفقتك . . ابقى هناك . . عالية مشرفة على كل المجاهل التى بحثنا عنها معاً سنوات طويلة استعنت فى أثنائها بتجارب الأسبقين ، ولكن أين هم الآن ؟

نحن الباقون . . الراسخون . . الصامدون . . الصابرون . . ها هى ذى يدى ممدودة رميت وراء ظهرى ثلاثة رءوس اقتحمت بيتنا . . لكن البيت باق يابثينة ينتظرك فاتحاً بواباته على مصاريعها . . أرى إشراقة ابتسامة على شفتيك لم أرها منذ تم زفافنا بالله عليك . . مدى لى يدك كما أمدها الآن نافرة العروق مشحونة بدم جديد عنى . .

– كمال . . هل بحثت عنى حقيقة ؟ هل تكدرت لغيابى ؟ الآن فقط

أستطيع أن أغير موقفى هل ستقف معى على الربوة ؟

نعم ياعزيزتى . . سأقف معك لا لنهوى ، ولكن لنشرف معاً على معالم الدنيا . . ثم . . ثم آخذ بيدك ونسير معاً إلى بيتنا . . ويمضى الأيام . . سننجب . . نجلاء أخرى . . نجلاء حقيقية قولى ورددى معى . . .

– سننجب معاً مولوداً جديداً . . إنى واثق من ذلك . . رددى معى هذه الكلمة الحلوة . . سننجب . . سننجب . . سننجب . !

دوامات ذكرياتى

هل يعقل أن تؤذى نَفْسٌ أختها ؟ . . قيل : إن أداة ثقيلة أصابت النفس الصغرى ، وإن ممسكة القوس قد أصابت رفيقتها الحبيبة بسهمها ؟

تعجب الرجال وتلاقوا بأنظارهم يستمعون إلى أقوال المتحدثين والمتحدثات . .

أما أنا . . الزوجة المظلومة . . التى عاشت مأساة زوجها بقلبها هى برغم علة قلبه هو . . وارتبك تنفسها وخرج عن نظامه اليومى المعتاد ؛ ليعانق تنفسه هو المتحشرج . . بغية الخلاص من مرض مفاجئ ، زلزل كيانه وارتطمت أنا تحت أشلائه ! . .

كيف بدأت الحكاية ؟ بل كيف سارت مراحلها . حتى أدت بى إلى حكاية أخرى لاتمت إلى حكايتى – بل حكايتنا معاً – بأية صلة ؟

سمعت فيما مضى من جدتى . . أن المرأة خلقت لترفه عن الرجل : تسانده إن أمكن فى أوقات راحته . . . تتلقى صفعاته كأنها قبلات على صفحات الورود وأنها لو حملت دون رغبته . . فله الحق أن يطالبها بالإجهاض ، ولما سألتها إن هذا محرم عند الله أجابت . . هذا صحيح . . ولذلك فعلى المرأة أن تأخذ حذرها ، لأن طاعة الزوج واجبة فى كل الأديان المقدسة . . كنت أميل إلى قولها ؛ لأن أبى كنا نحبه ونحترمه وكلمة الاحترام لم أفهم مدلولها وقت ذاك . . كنت أظن معنى الاحترام هو الخوف . . أى أننى أخفى كثيراً مما أعلمه فى نفسى أو لعلنى أخفى أشياء لا أعلمها . . المهم أن أتحفظ فى تحركاتى وفى سكناتى حتى فى أوقات نومى . . فربما أتفوه بكلمة أو معلومة . . المفترض ألا يعلم بها سواى وسوى ربى .

وبمضى السنوات . أدركت أن الاحترام لإنسان مفترض أنه محترم هو أن يكون منزهاً عن الدنايا . . أو هكذا يشى مظهره لاينبس بلفظ نابٍ ولايأتى عملاً منكراً . . ولايغتاب الناس .

وفوق كل شىء أن يقوم على عمله خير قيام .

معتقدات جميلة . وأساليب مثالية . . وبمضى السنوات أيضاً أصبح للمثاليات مفهوم آخر فالإنسان حر . . وكونه حرًّا ليس معناه أن يتصرف على هواه أو كيفما اتفق ، لكن الحرية وصاية ومسئولية . . حسنٌ . . وعظيم أن تتطور المفاهيم إلى حبات قد تتضخم ، فتتحول إلى أجسام كروية وبكرويتها قد يراها البعض قنابل . يدوية أو غير يدوية ، وتشاهد الفتائل ، ويعرف البعض أو الأغلبية أن هناك مخاطر ، حركة واحدة ، لمسة واحدة ويحدث الانفجار ،

لكن لم يحدث الانفجار وكيف ؟ ولمصلحة من ؟

خلق الله الإنسان . . ليعيش ولكي يعيش يجب أن يحمى نفسه ، وحمايته لنفسه ممن ؟ ولماذا ؟ ربما من الطبيعة أقوى ماخلقه الله . . ولماذا ؟ ليطول عمره ويرزق أجيالاً وأجيالاً . .

لكى أبدأ فى لم فتات حبات عقدى الذى لاأعرف عدد حباته – يجب أن أستبدل الخيط المتهرئ بآخر أكثر متانة وقوة ، ولكن كيف سيتأتى لى ذلك ، والكل من حولى يحاصرنى مصوباً سهامه من أقواس جبروته نحوى ؟ لست أدرى لم تنحرف تيارات أفكارى ، فتقذف بلب المشكلة يميناً ويساراً . . أخشى ان أستسلم لدوامات ذكرياتى ، فتبتلع رغبتى فى الإفصاح عما أعانيه فى أعماقها . . وعندما أجاهد مرة أخرى للحصول على القوة فى التركيز أتوه . . أتوه ، ولا أملك ساعتها إلا الاستناد إلى جسر التنهدات . . الأفضل من كل ذلك أن أمسك بطرف المشكلة لايهم إن كانت تبين عن أولها أو آخرها أو منتصفها . . كل ما يعنينى أن أشير إلى حقيقة ماعانيته وأعانيه ، شىء غريب ومحير أن يخدع الإنسان نفسه أولاً ، ثم يفلح فى خداع الآخرين والأخريات ، اختارنى زوجى بمحض إرادته ، كانت فيه كل الصفات المطلوبة من حيث المنصب والعمر والهيئة العامة .

شىء جميل أن ينتمى الفرد لأسرته ، ينتمى إليها بكل مقوماته من حيث صلة الدم ومايقتضيه ذلك من بذل وتضحية . . لكن أى علاقة تتجاوز حدودها تصبح عرضة للتساؤل والبحث ، مايهمنى فى كل ذلك أنه أخفى عنى

شيئاً قد يبدو للبعض غير ذى أهمية . . وسارت بنا الأيام عادية . . مقبولة إلى حد ما . .

لاحظت فى خلال سنوات عمرى معه . . أن علاقته بأمه وأخواته متينة وهو شىء مستحب ، ويدل على عظم الرابطة التى تربط الإنسان بأقرب الناس إليه . . لكن النزعة المسيطرة هى الصفة التى تستحق منى أن أتأملها . . أتفحصها ، ثم أعلن نتيجتها بعد تروٍّ فى التفكير البعيد كل البعد عن العاطفة غير العادلة . .

كانت الأم تعاملنى كتلميذة بليدة الذهن تحتاج الى رعاية وتوجيه مستمرين ، أما الأخوات فكن يَنْهيْنَنِى دائماً عن الانفراد بزوجى ، قائلات فى ذلك : بأنك ستبعدينه تدريجا عن أهله ، والإنسان منا لاينفرد برفيق عمره إلا فى بيته ، ولم يكتفين بالإشارة إلى ذلك بل دعمنه بالتردد علينا بطريقة تكاد تشى بأننا جميعاً نقطن فى شقة واحدة . . والحرية التى نوهت عنها سابقا معناها فى تصورى أن أعيش كما أريد فى حدود يتقبلها مجتمع متحضر وعقول نيرة بحيث لا أشعر بالضغط علىّ ، ولا بأننى أثقل على آخرين . .

مطلب يخيل لى أنه عادل لا أوذى فيه أحداً كما لا أقبل أن يعانقنى إنسان ، ثم يواصل عناقه بحيث يضغط على رقبتى ، ويواصل ضغطه حتى يجهز على بحجة أنه يحبنى ولايستطيع أن يفارقنى .

ثم حدث ماحدث ، حدث ماسبق أن أشرت إليه فى رفق ناعم تماماً ، كما تداعب النسمة صفحة ورقة من وردة وديعة ، استلقى زوجى على فراشه رافعاً ناظريه إلى أعلى ، أحسست بأنه يناشد السماء عوناً ، أدركت أن كل من يعيش

على الأرض لايسترعى نظره ، هل أقول : إننى فى غمار حديثى نسيت أو تناسيت أننى رزقت أبناء ، أبناء تتمناهم أية بلدة عريقة ، لها ماض وحضارة تنيف على آلاف الأعوام . . أو أن غمار الأحداث جرفتنى فى ثنايا طياتها فبات نفسى متحشرجاً مما أثر على جزئيات تفكيرى ؟ ومع كلٍّ فهأنذى أتحمس لسرد ماحدث بالنسبة لزوجى .

تركزت نظراته إلى كل ما يتجاوز الأرض ومن عليها . . ثم صمتت شفتاه ، أحسست أنه يجتاز محنة مرضية أثرت على تفكيره وأعضائه ، وأن الشيء الذى أخفاه عنى بدا يفصح عن نفسه سواء التزم الصمت أو برقت عيناه إلى السماء ، وحسم الموقف طبيب مختص قال فى كلمات موجزة :

– زوجك مريض بالقلب . . علته قديمة . . كيف أقدم على الزواج ؟ ليس ذلك فقط ؛ بل تجاوز كل ذلك ونصب نفسه أباً ! .

التفت النسوة حولى كذباب صفيق الحس يريد التهام حلوى مركزة العسل :

اقتبست أسلوب زوجى ، وشخصت إلى أعلى ، فشاهدت سقفاً متين البناء . . لكن نظرتى حولت ارتفاعه إلى هبوط فأصبح يمثل سجناً مقاسه بمقاس حجمى المتواضع . . فوراً عرفت أننى أختنق وبرغم أن الشرنقة شفافة شاهدت من خلال أحبالها المتينة كل الوجوه ، وانطبعت لدى كل التعبيرات ، وبدل أن يعترف بأننى ضحية اندلعت خراطيم المياه ، لاتبغى إطفاء نار . . لكن تريد أن تبيد كل شيء . . !

الواجب . . الشرف ما يمليه علىّ ضمير المعاشرة من المساهمة فى تخفيف الآلام عمن نصب نفسه زوجا لى وأبا لأبنائى . . كلمات جميلة . . أو مثاليات

مزوقة بشرائط الألوان . . قلبي تفوق على كل الأحاسيس والعوامل الأخرى . . ووجدت نفسي ووجدني الآخرون أيضاً أبيت راكعة عند فراش زوجي لألبي له أية رغبة بحيث أعاون على شفائه فماذا حدث ؟

الظرف الجديد أوحى لهؤلاء النسوة اللاتي تقمصن دور المحامي ، المحامي شكلاً لكن مضموناً إنما هو عدو متربص لأية هفوة ، فإن لم توجد اختلقها أو افتن في ابتكار مايؤدي الغرض المنشود ، والغرض المنشود هو إبعادي نهائيا عن زوجي طريح الفراش ! بقي سؤال منطق يطرحه كل من يبغي الوصول إلى الحقيقة .

ما الدافع لهذا العدوان ؟ ومن بالتحديد الرابح في المعركة .

المعركة ؟ قلت المعركة ، لقد تحولت الشقة فعلاً إلى حلبة من حلبات المصارعة ، وبدل أن تكون لعبة حماسية طريفة الهدف من ورائها كسب حلال لمصلحة الأطراف كلها استبدلتها النسوة كلهن إلى أرض مجهول نسب صاحبها .

المهم أن إحساسي تحول إلى مشاعر امرأة وحيدة إلا من إيمانها . . تلوذ من أقرب الناس إليها إلى . . لا أحد ، الجو كله أوحى إلى أن هذا الماثل أمامنا فريسة لمرض قد يكون عارضاً أو تطول مدته ، سألت نفسي ما الدور الحقيقي الذي ينبغي علي أن أؤديه ؟ الشيء المؤكد أن الشقة أصبحت محتلة وبقي شيء وحيد ، لكنه هام وحاسم . . من مالكها الحقيقي ؟

آه !أدركت أخيراً الهدف من وراء الاستفزاز . . كيف ؟

فجأة . . وجدت نفسي مع أبنائي خارج باب غرفة زوجي . . قد يحدث ذلك كثيراً وبحسن نية ، لكني وأنا أعد فناجين القهوة لترتشف النسوة مشروباً

ساختاً يسلمهن لخدر مستحب . . لم يخطر على بالى إطلاقاً أن هناك شيئاً داخل الحدود يدور مبتغياً هدفاً كان مخططاً له من قبل . .

طرقت الباب كغريبة تستأذن فى دخول بيت . . المفترض أنه بيتها سمعت صوتاً أجشّ ليس غريباً على مسمعى يقول – ادخلى . .

عظيم . . دق قلبى فرحاً . . زوجى بدأ يتماثل للشفاء ، حقيقة أن فى رنة صوته لهجة آمرة . . ولكن لم لا ؟ لعله يوحى لنفسه بأنه وهو يسترد صحته قد استرد أيضا أكثر من شىء . . بعد لحظة انفتحت ضلفة باب . . أحسست بأن هناك شيئاً غير عادى أو مألوف . . . زوجى يرقد كما تركته سابقاً . .

انبرت لى والدته وساندتها أخته الكبرى قائلتين

– ضعى صينية القهوة واخرجى فوراً :

عظيم . . ربما وجود القهوة هو الذى أتاح لى أن أخطو إلى داخل الحجرة ، ماالذى يدور ياترى ؟

– لعل السبب وجيه أو مفيد لأغادر الحجرة . .

أتانى صوت لم أبحث عن مصدره يقول : لاتدخلى بيتاً ليس بيتك !

– كيف ؟

– أصبحت امرأة مطلقة . . لايصح لك بعد ذلك الإقامة فى بيت ليس بيتك !

هل سمعتم عن الزلازل والبراكين والفيضانات لم يتهيأ للناس أن يلموا بمايجب أن يفعلوه قبل أن تلم بهم الكوارث ؟ قيل إننى تخشبت أعضائى وتوقفت الحياة عنى تماماً للحظات لم أكن طريحة الفراش كزوجى ، عفواً عمن كان

زوجى ، لكن تشابكت الأعاصير دفعة واحدة تحولت إلى شبكة ضخمة من العقد والتوءات ، حاولت أن أمد يدى وأن أشخص إلى الأعداء المقربين وأن أرنو إلى السماء ، السماء التى كان يحدد إليها نفسها والد أبنائى النظر .

شحذت ذهنى وركزت فكرى أن يعمل . . ما الذى كان يجب على أن أقوم به ؟ وما الذى يتحتم على حاليًا أن أصلى من أجله ؟ دفعة واحدة رنوت إلى أبنائى من اتحدت الدماء والعروق والوجدان على صنعهم وأمر الله بإخراجهم إلى هذه الحياة العفنة . . .

رنوت إليهم . . لا أدرى ؛ هل كنت أبغى مساندة هؤلاء الصغار اللّيين العود أو أن تضمهم مقلتا عينى تبغى الاحتفاظ بهم ، فتغلق عيناى ليكون آخر مشهد لى . . هم أنفسهم . ؟

فجأة صحوت من رؤيتى واستيقاظى وعرفت أننى محتلة أمراً واحداً يجب أن أتقبله وهو أن يأوينى الشارع . . حيث الكلاب الضالة وزوار الليالى المدلسون ماذا أقول ؟ وهل بقى هناك مايقال ؟ الكلام إهانة لى قبل أن يكون لهم . . هكذا العلاقات الإنسانية فى طرفة عين تنتقل الشمس إلى الأرض وينير القمر نهاراً ! هل يمكن أهل الشمال أن تسمر وجوههم ، وأن يتعروا من الملابس فى قمة البرد القارس ؟ هل يمكن للطير أن تلد حيوانا ؟

اللحظة لاتسمح بالعتاب ، الموقف لايتحمل تحليل الأمور . . ما يجب أن يحدث هو . .

كيف أعيد لنفسى كرامتها ؟ ولم أتحول من إنسان حرة إلى أخرى تفاوض فى

إثبات وجودها الحيوى والمعنوى ، وهل هناك إلا الحرب مدعمة بحقوق واسترجاع كيانى . . ؟

من كان يصدق أنه من سنوات قريبة زغرد البعض ، وتبودلت قبلات . وبعثت بباقات ورود وطبعت أوراق بلون ذهبى ، تعلن اقتران جسدين فى روح واحدة ؟ من كان يصدق كل ذلك ، عندما تهدمت الأسقف وتداعت الجدران وتحولت الأجساد إلى رماد ، بعثر فى أى مكان بل فى كل مكان . ؟

القانون يتساءل : الشقة من حق من ؟ الزوجة مع أبنائها أم لمطلق فى انتظار صيد جديد ، أو رماد قد يتحول مع مكونات الطبيعة إلى جسد شهى :

وكلام الله يردد (لاتخرجوهن من بيوتهن)[1] .

وما أحلى الكلام ! ماأحلى الكلام !

---

(١) سورة الطلاق آية ١ .

أحبال الشح الخانقة

خطواتهما معاً تشكلان لحناً موسيقيا غير محبوك . . وخاصة خطواتها هى . . الأم الملتاعة على ولدها . . تزوج أخوه وسبقته أخته ولم يعد لديها هى – الأم – إلا آخر العنقود ، من يذكرها بشباب لم يول بعد . . من يعاونها ويرفه عنها ويختزن معها آلامها وأحلامها . . للشباب نزوات . . ولهم أيضا مفاهيم تختلف بطبيعة الحال ومفاهيم الجيل الأسبق . . أزمة المواصلات أيضا . . مصادفات الطريق . . آه ! عند ذلك اتخذ تفكيرها فرصة راحة . . راحة للدخول فى أول المتاهات الطريق وما أوعره مطبات . . زحام . . تكدس . . قلق . . أنانية تدفع الجميع للتسابق . .

لم يعد أمامها إلا أن ترنو إليه . . إلى الزوج الوالد تتأمل طلعته . . تراقب تحركات يديه . . لكن الأمر خرج من يدها ، فالرجل ملتاع ووجهه يصافح

أرضية البلاط غير الشفاف . . الحيرة بادية . . والقلق استتب فى عتبة البيت . . ماذا ؟ الجرس يدق . . زائر فى تلك الساعة ، ولدها الحبيب فى جيبه مفتاحه . . بل مفتاح المغاليق كلها . . العتمة التى بصمت على صدور وقلوب الوالدين لكن مالها . . لا يتحركان ؟ لم تتحرك هى دائماً لم يدعها زوجها سادرة فى آمالها أفلابد لها أن تتقدم خطواتها لتبادر بفتح الباب ؟ من ؟ الإبن الحبيب ؟ بالأحضان يا بنى بالأحضان .

أين كنت ؟ ولماذا تأخرت هذه الساعات الطوال دون أن تلجأ للتحدث تليفونيًّا ؟ استهتار هو وعدم مبالاة ؟ أم مصاب فادح ؟ دعنى أتفحصك . . أقلب فيك تماماً كما كنت على صدرى رضيعاً قطعة لحم طرية . . وردية جزءاً من أنفاسى وجسمى . . لماذا لا تتكلم يا ولدى ؟

تنهد الشاب . . رمقه أبوه . . خرج صوته مبحوحاً – أين كنت يا ولدى ؟

شتان ما بين مشاعر الوالدين . . رنا الشاب إلى أبيه ونظراته تمسح أرضية الصالة .

– كنت . . كنت . . مخطوفاً !

خرج صوتاهما معاً . . يصرخان يلتحمان فى بقعة واحدة . ثم تحولت البقعة إلى دائرة محيطها صغير ارتكز فى وسطها الشاب ، تكونت حلقة محكمة وتناثرت الكلمات بعضها خرج من النوافذ وبعضها استقر فى السقف ومعظمها نفذ إلى خياشيم الأم ، واستقر فى قاع قلبها . . أما الوالد فقد دهمته المفاجأة ولم يعد يستطيع كبح جماح نفسه ، فكان يقاطع كلام ولده ، لكن فى النهاية استخلص الجميع أنه وهو فى طريقه إلى صاحبه الذى يذاكر معه توقف تاكسى وهبط منه

نحو أربعة أفراد أحاطوا به وأسنة المطاوى تبرق أمام عينيه ، برغم الظلام الشديد خفق قلبه ولم يدر كيف يتصرف ، عندما حاول الاستنجاد بالمارة كادت مطواة أحدهم تنفذ إلى أمعائه ، وسمع من يقول : إن كنت تروم السلامة فادفع أربعمائة جنيه ! قد لا تكون معك حالياً لكن سنمهلك إلى الغد وإياك والشرطة إياك . . وفى هذا المكان نفسه و . .

انطلق مارد من بطن الوالد وأسر إلى زوجه وابنه – هذا أسلوب الجبناء ، أعنى فى حالة تلبيتنا لمطالب هؤلاء الأوغاد . . بل ليس أمامى . . إلا الشرطة !

وهل للأمومة رسالة إلا الحنان والعطاء ، العقل فى إجازة والولد أمامها . . ليس عليها إلا أن تحافظ على فلذة كبدها شاء الأوغاد أو لم يشاءوا . . شاء الوالد أو لم يشأ . . خرجت الكلمات من فيها . . اندلعت ناراً تدفئ لا تحرق . . وانكفأ الولد على المائدة وأسلم رأسه للمجهول !

كيف السبيل إلى النوم – والأحلام كلها تتركز فى حدأة ضخمة تحط على شرفة البيت وتختطف فرخاً خالياً من الريش والأم تصرخ . . ولا يسمع لها صوت . . لازمها الحلم ليالى طوالا . . وانحبس الشاب فى البيت إلا فى لحظات قصار كان يخرج فيها قرب البيت ليستنشق هواء جديداً . . ومرت بضعة أيام . . وفجأة حدث ما خلخل كل الموازين !

دخل الأب البيت وفى يده خطاب مفتوح ، مد يده لزوجه ثم لابنه محاولا إقناعها بقراءته واستيعابه ، وفى الوقت نفسه دفعته عصبيته للشرح والكلام : الأوغاد يهددوننى بخطف ابنى مهما حرصت على الحفاظ عليه . . لابد لى من الدفع ماذا أصنع ؟ لا أملك مالا . . تعرفون ذلك جيداً . . مالا . . مالا . .

طرقت الكلمة مسامع الأم تحولت إلى معول حفر فى رأسها بؤرة . . سرعان ما تقيحت وغطاها الصديد ! لم تدر كيف امتدت يداها تطمس بها الصورة عن عينيها . . زوجها الشحيح . . زوجها الذى ينام وتحت وسادته مفتاح الخزانة السرية التى لا يعلم ما تحتويه إلا صاحبها . . زوجها الذى يحرم نفسه كل متع الحياة حرصاً على غده غير المضمون ! لم تعد أذناها تتلقى بقية كلماته . . لكن ما تدريه حقيقة هو خشخشة صوت حصى كلماته فى طبلة أذنها . . وصرخت – لا تبلّغ الشرطة أتوسل إليك !

مرت الأيام . . الشاب فى صومعته والأم لاتنام . . لاتأكل . . لاتعيش !

الزوج حائر بين الخطابات المتتالية من عصابة الأوغاد وبين تعليمات الشرطة وبين . . وبين صمت ولده . . ووجوده الميت . . الحى . . ثم . .

دق الجرس . . ودق قلب الأم . . ثم دار الوالد حول نفسه . . والتقت الأعين ولم يتحرك أحد .

وأخيراً واجه الشاب باب الشقة ثم انفتح على مصراعيه وابتسم الشرطىّ ورنا إلى الشاب وهمس له – لا تخف !

وغاص قلب الشاب بين أضلعه وسرعان ما انفلت واتضم إلى قلب أمه ، وتكونت شبكة هواجس وأصاب الدوار كليهما ، أما الضابط فقد اتسعت ابتسامته ، لكنه خص الشاب بحديثه : الجواب معى يا بنى . . لا تخش شيئا ، لكنى أريد مزيداً من الإيضاح أمام والديك !

ورنا الشاب إلى أمه ، ثم وقف خلفها وانحرس لسانه وسأل الوالد ماذا حدث ؟

وأجاب الشرطى :

– كنت أفضل أن يحيينى ولدك ومع ذلك سألقى عليه سؤالا هل تخرج من البيت ؟ وهز الشاب رأسه علامة الإيجاب ، وأنابت عنه أمه فى الشرح – يستنشق بعض الهواء ، لقد مل الحبس ، أليس ذلك من حقه ؟

وابتسم الشرطى ثم استأنف حديثه :

– منذ دقائق شاهدته ومعى بعض الزملاء يرمى بخطاب فى صندوق البريد . .

وقاطعته الأم

– تصرف عادى .

نعم لكنه يصبح غير عادى إذا كان هو الذى يبعث بخطابات التهديد ! نحن نراقب المكان منذ تاريخ الشكوى المقدمة من السيد الوالد . . ولا بد لنا من الإيضاح .

التحم جسما الأم والابن معاً ، كونا ما يشبه الإنسان العملاق وخرج صوت منهما ، لم يدر الضابط صوت من فيهما قال الصوت : نحن نعانى من الشح والتقتير ، الأب يملك مالا لا نريد منه الا المستطاع ملبساً معقولا غير ممزق وطعاماً يسد الرمق لا نطلب الكثير جهاز تليفزيون لا لشىء إلا للمتعة المتاحة لأفراد الأسر المتآزرة المحبة بعضها لبعض .

لجأت لهذه الحيلة ، لنشترى كل ما حرمناه ! اعتذارى لأمى الحبيبة التى أسلمتها بحسن نية لقلق وارتياع . . غير نادم . . أنا غير نادم على الإطلاق ، واصنعوا بى ما شئتم فقد جف حلقى . . وتمزقت أعصابى . . ليكن ما يكون . .

لكنى غير نادم . . غير نادم وساد هدوء بعد خروج الضابط ، واختفى الوالد فى حجرته عدة أيام لا يأكل فيها ولا يشرب ولا تراه إلا الجدران . . .

ودبت الحياة من جديد فى البيت ، لكن الشىء الذى تغير هو . . اختفاء مفتاح الخزانة من تحت الوسادة التى كان ينام عليها السيد الوالد . . طول حياته !

السلاح الأزرق

الصغيرة ترنو بحب وولع . . كل ما اختزنته من مشاعر جياشة ، يكاد يطفو على السطح لكن هناك قوة رادعة ، دائمة التلويح لها تحمل علماً هفهافاً ، مكتوباً على صفحته : ليس كل ما تتمنينه تنالينه . . الصبر . . الأيام تمر سريعاً . . سيحين الوقت المناسب لترتمى فى أحضان أحبائك .

الصغيرة تسير الهوينى ، طولها قصير ، شعرها طويل . . عيناها مفتوحتان كأن آلة تهيمن على طريقة تحديقها ، إن من يشاهدها يبهت ، لا تساع حدقتيها كأنما كل نعم الدنيا تبصم بإمضاءاتها فى قاع عينيها ! .

تشدها الآمرة من طرف كمها قائلة : « حاسبى ! . . قد تتعثرين فى طوبة أو نتوء فى الأرض . لست وحدك . . لست وحدك ،إنه معك ! » .

لا يمكن الحدقتين أن تتسعا أكثر من ذلك ، لكن كيف تثبت أنها ما زالت

المطيعة لكل الأوامر التى صدرت ، وتصدر وستلقى عليها فى الغد وبعد الغد . .

صكّ سمعها قول السيد الذى يمسك بكتف امرأته « متى ينمو . . متى يكبر ؟ » .

وترنو المرأة إلى الحوانيت ، الفاتحة ذراعيها وتهمهم : « إن غدا لناظره قريب » .

لم يفكر واحد منهما أن يرنو إليها ، أو إليه ، فهما معاً يمثلان جيلاً ، كيف لهما أن يقرأا ما فى الصدور ، لكن مهلاً . . لقد نبهتها الطاهية التى تعمل فى البيت مرة كل أسبوع . . أن السيدة حكيمة وذكية ، ترى النظرة ، تلمح الإيماءة ، وتصل الأنباء إليها فوراً حتى لو كانت الشفاه مطبقة أو الأعين مغلقة . . إنها خلقت لتكون آمرة . . أما أنت ياسعدية فتصرفاتك مفضوحة ، حتى لو التحفت بالسقف وضممتك الجدران إلى أحضانها الباردة ! .

الهلع ، الحنين ، الرجفة تلازمها ليلها ونهارها ، لكنها تسير الآن معهما الاثنين ، لا بل مع الثالث أيضا . .كيف تتجاهل ذلك حتى لو أصابها النسيان ؟ !

سمحت لعينيها أن تتحولا ، إنها فى الشارع الآن وهى فرصة قلما تسنح لها . . الأعين جذلانة ، الشفاه تكشف عن أسنان سليمة ، وثنايا ضاحكة . . الكل متجمع ، الصغار كبار ، والكبار ينحنون كالصغار . . لا يكاد المرء يميز جيلاً من جيل ، وهى . . أين هى ؟ فى المدينة الواسعة ؟ كيف تنسى النصائح الملقاة على مسامعها . . فى جيبك ياسعدية قروش فضية تغرفين منها . . ستزهدين الحلوى . أما الدمى فستحيطك بجاها وبهائها ، لن أحدثك عن ماما وبابا

المستحدثين ، يحبان الأرض التى قد تدبين عليها . . لقد اختارا لك اللون الأزرق ، يمثل لديهما لون السماء ، حيث الملائكة التى ستحرسك ليلاً ونهاراً ، دعيك من القرية . . من الذباب الحامل الأمراض ، من الطين ، من القذارة بكل أنواعها ، من البهائم ورائحة الروث . . من حرائق الغيطان ، لكن مصر أم الدنيا . .

مازالت الرؤى تحاصرها . . الحوانيت تفتح صدورها . . ومازالت الجياد ، الفرسان وخاصة هذه العرائس ، تشدها بمجامعها . . لقد اختلط عليها الأمر ، ففى غمرة أحاسيسها الجياشة ، وفى قمة الغليان طفت الرغبة المتأججة فى الحصول على عروسة . لم تدر كيف سمعت السيدة الآمرة هذه الكلمات : « أريد عروسة حلاوة . . أضمها إلى صدرى ! » .

لابد أنها تفوهت بهذه الكلمات ، وإلا فما عقبت السيدة قائلة :

– سنشتريها لك ، اطمئنى ! .

ولم لا يكون الآن ؟ .

هذه المرة ، أقسم أن الكلمات ، هسمت بها من الداخل . . لكن كيف لها أن تعرف ما بداخلى إذ قالت : « نحن مشغولون جميعاً . . البيت قريب والصغير على كتفك . . إن غدا لناظره قريب » .

سرعان ما يمر الزمن . . ها هى ذى الشقة تضمهم مرة اخرى ، تريد أن تنام فى حضن أمها ، لتكن البهائم حارسة ، لتشتعل الحرائق فى الغيطان ، لتكن القذارة هى العباءة التى تغطى القرية ، بكل ما فيها ومن فيها . . لقد ملت هذا السجن الناعم النظيف ، وصرخات الرضيع . وأقوال السيدة المتكررة :

« موظفة أنا قبل أن أكون ربة بيت ، احتاج للراحة . . ألا تستطعين تهيئة ساعة لأنام ؟ . . خذيه فى حضنك لعله أخوك . .أليست هناك رحمة ؟ ! » .

لكن سعدية ترنو إلى ثوبها الأزرق ، وتتعجب . . سيدتها تختار لها دائما هذا اللون ، حتى همست لها الطاهية فى يوم وهى تضحك :

– يخيل لى يا سعدية أن بشرتك من شدة بياضها تحولت إلى اللون الأزرق ! . ها ، ها .

أما شغالة الجيران محاسن ، فلم تعدم بدورها التعليق قائلة :

– حتى فستان العيد أزرق ؟ يا نهارك أزرق !

وحتى العروس الحلاوة التى اشترتها لها سيدتها فى العام الماضى وأحبتها كثيراً كان فستانها أزرق ! .

همس لها البواب قائلاً : « تلحين على دائماً بالسؤال . . بعد يومين يا سعدية ، مولد النبى الشريف ، كل سنة وأنت طيبة » .

لا ، لم يعد هناك وقت إلا اليوم . . اليوم ستشحذ همتها ، ستجمع كل ما تملكه من قوة وتصرخ فى وجه الآمرة : « حان الوقت لأرتمى فى أحضان أمى : أيضا أنا . . أريد أن أنام وأرتاح ! » وابتدعت لنفسها أملاً ، أدارت زر الراديو ، وانسابت الأغانى كلها تعلن عن قرب عيد المولد النبوى . . يا حلاوة الدنيا عندما تضم خلائقها بين أحضانها . . الأمل موجود ، الفرح موعود ، والآمرة وزوجها فى العمل ، ليكن . . المفتاح يدور فى باب الشقة الآمرة وصلت بالسلامة . . ستلاقيها بترحاب لم تعهده فيها ، منذ أن وطئت قدماها عتبة الشقة .

– أهلا بك يا سيدتى . .

رنت إليها الآمرة ، كأنما تراها لأول مرة . ومرت الساعات ، كان كل شىء جاهزاً ، المائدة معدة ، الأطباق نظيفة ، الرضيع نائم شبعان . . حان الوقت الملائم ، لابد أن تضرب ضربتها الأخيرة ! .

– ألن تسمح لى ياسيدتى بالسفر إلى أهلى . . لأكون بينهم فى المولد النبوى الشريف ؟ .

– لا نستطيع الاستغناء عنك ياسعدية يوماً واحداً ، جربت الحضانة ، النتيجة مرض ألم بصغيرى . . العدوى لا تستبق طفلاً . . ليست لى رغبة لمرض صغيرى . . سعدية ناوليني هذه الفوطة – الزرقاء ! . .

باطنها يغلى . . الكل يعمل فى الخارج ، حيث الهواء طلق . . القطط تلهو ، الأطفال ضجيجهم فى الخارج يلعبون الكرة . . يحفر فى زوايا رأسها بؤراً تتجمع فيها كل طيور الحقد . . الجميع يحصلون على إجازات عداها ! .

اللون الأزرق يحيط بها من كل جانب ، لم تدر شيئاً إلا أن هذا الصغير يمثل لديها عائقاً تماماً كما انكسر كوبرى القرية وعزل سكان الضفتين . . الفوطة الزرقاء التى لا تستغنى عنها أم الوليد بين يديها تهدهدها . . تمثل لديها عروساً أخرى لا تنهشم ، كالعروس الحلاوة تقترب من الطفل تمد يديها ، لم لا تغطينه بالفوطة الزرقاء ، وبالتحديد حول رقبته تشدها هكذا ، هكذا ! . . يا حلاوة المولد ، وجه الطفل أيضاً تحول إلى اللون الأزرق برغم صحته ، إنه لم يصح ، ستصيح هى – يا ناس ! . . الحقونى . . الحقونى ! . .

جاء البواب مسرعاً ، اقتحم باب الشقة . . سمع سعدية تردد بلهاث ولهفة وجزع :

– مات الطفل . . مات الرضيع ! .

لم تدر ماذا حدث بالتمام . . لقد مثل البواب دور الفارس ، لكن بغير جواد ، فى المستشفى تمكنوا من إسعاف الرضيع الذى عادت إليه الحياة . . وبين يدى المحققين كانت أقوال سعدية التى صكت مسامعهم :

–مات الطفل وهو نائم . . ماذنبى . اللون الأزرق كان يحيط بى . . لم أفاجأ عندما شاهدت وجه الرضيع ، قد تحول من الوردى إلى الأزرق . . !

الفهرس

صفحة

بقع الدم الوردية ٣
القلب المثقوب ٧
الأوزة السوداء ١٦
سكر نبات ٢٢
الضعف المجنون ٤٣
ابنة من رحمين ٥٢
شبابى الذى عاد ٨٠
تابوت الحياة ٨٦
شقة فى الجنة ٩٣
ست أصابع فى قفاز ١٠٣
دوامات ذكرياتى ١٣٨
أحبال الشح الخانقة ١٤٧
السلاح الأزرق ١٥٣

رقم الإيداع	١٩٨٠/٢٥٦٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٩٩٧ – ٤

١/٧٩/٢٢٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)